

سلسلة حسن الظن بالله عز وجل

المجلد الأول

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ

كيف تعرف ربك فتحسن الظن به

مدارج القلوب

إهداء

إلى من أتعبه السؤال، وما زال يرفع حاجته إلى الله.
وإلى من يريد أن يعرف ربه معرفة تعينه على الرجوع والعمل
والرجاء.

نسأل الله أن ينفع بهذه الصفحات، ونرجو دعوة صالحة لنا
ولو الديننا ولمن أعان.

تأليف وتوزيع مدارج

الإصدار ٢٣٠٠

الفهرس

٥	مقدمة
١٠	تمهيد: حسن الظن ليس ضمانًا للنتيجة التي أريدها
١٣	الفصل الأول: وما قدروا الله حق قدره
٢١	الفصل الثاني: الرحمة التي عرّف الله بها نفسه
٣٧	الفصل الثالث: حين تعرف من تتوب إليه
٦٣	الفصل الرابع: حين تعرف أن ربك غفور
٩٣	الفصل الخامس: الحكمة حين لا ترى تمام الأمر
١٠٢	الفصل السادس: اللطيف الخبير
١٠٨	الفصل السابع: ربك لا يظلم أحدًا
١١٩	الفصل الثامن: يعلم حاجتك ويقدر على ما يعجزك
١٢٥	الفصل التاسع: الغني الذي يرزق عباده
١٣٧	الفصل العاشر: قريب يجيب من دعاه
١٤٥	الفصل الحادي عشر: وعده حق

١٥٢	الفصل الثاني عشر: الكريم الذي تستحي أن تقابل إحسانه بالإعراض
١٦١	الفصل الثالث عشر: الشكور الذي لا تحتقر عنده العمل الصالح
١٦٦	الفصل الرابع عشر: الوهاب: وأعظم ما تسأله صلاح قلبك
١٧٠	الفصل الخامس عشر: حين تصير المعرفة ثقة
١٨٠	خاتمة: معرفة تصحبك
١٨١	المصادر والمراجع

مقدمة

تأتي على الإنسان ساعات لا يحتاج فيها إلى مزيد من الأخبار،
بقدر ما يحتاج إلى قلب يعرف إلى مَنْ يرفع خبره.

يتأخر أمر كان ينتظره. يغلق باب ظن أنه إذا فُتح استقامت
حياته. يدعو طويلاً، ثم تمر الأيام ولا يرى الصورة التي رسمها
للإجابة. يمرض من يحب، أو يخاف على رزقه، أو يكتشف في
نفسه ذنباً ظن أنه تجاوزه ثم عاد إليه. وفي هذه المواطن
يسمع كثيراً جملة طيبة: أحسن الظن بالله.

لكن الجملة التي تُقال بسهولة قد تحمل وراءها علماً عظيماً
وحياةً كاملة للقلب.

فما حسن الظن بالله؟ وهل معناه أن تتوقع أن يجري كل
شيء كما تحب؟ وهل يعني أنك إذا دعوت بشيء فلا بد أن
يأتيك بالصورة التي تخيلتها وفي الوقت الذي اخترته؟ وهل
يكفي أن تقول: «ربي رحيم» ثم تمضي في طريق تعرف أنه
يسخطه؟ وهل الحزن عند المصيبة سوء ظن؟ وهل الخوف
من المستقبل نقص في الإيمان دائماً؟ وكيف يحسن الإنسان

الظن بربه في أمر لا يفهم حكمته، أو في باب طرقه مرارًا ولم يُفتح له بعد؟

هذه الأسئلة ليست هامشًا في الموضوع. بل هي من صميمه؛ لأن حسن الظن إذا لم يُبن على معرفة صحيحة بالله، أمكن أن يتحول من عبادة قلبية إلى أمنية نفسية، ومن رجاء إلى توقع، ومن ثقة بالله إلى تعلق بالنتيجة التي نريدها نحن. ومن هنا يبدأ السؤال الأهم: كيف تعرف ربك معرفةً تعينك على حسن الظن به؟

لا يحيط العبد بربه علمًا؛ وإنما يعرفه بما عرّف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ. يعرف رحمته وحكمته وقدرته ومغفرته وعدله وكرمه، ويصدق وعده. هذه المعرفة تصحب الإنسان في ذنبه وبلائه، وفي دعائه وخوفه، وتعينه حين لا يرى من الطريق إلا موضع قدمه.

حين يعرف العبد أن ربه غفور رحيم، لا يعود الذنب عنده سببًا للقنوط، مع بقاء الخوف من الذنب نفسه. وحين يعلم أن الله حكيم، لا يشترط على حكمته أن يفهم كل تفصيل من تفاصيل القدر حتى يؤمن بها. وحين يعرف قدرته، لا يقيس إمكان الفرج بحساباته وحدها. وحين يعلم عدله، لا يجعل

غموض المشهد في الدنيا دليلاً على غياب العدل. وحين يعرف وعده، لا يختلق لله وعوداً لم يعد بها، لكنه يطمئن إلى ما وعد به حقاً.

قال الله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ^٦ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ^٧ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. [الفتح: ٦]. كان من سوء ظنهم توقعهم ألا ينصر الله رسوله والمؤمنين. فالخلل هنا اعتقاد عن الله ووعد، وليس مجرد حزن يعرض للإنسان أو خوف يجد مشقته في نفسه.^١

وفي المقابل، يفتح الوحي أبواباً واسعة للرجاء، لكنه لا يفتحها لتبقى الأقدام واقفة خارجها. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. [الزمر: ٥٣]، ثم أتبع ذلك بالأمر بالإنابة والإسلام له واتباع ما أنزل. فالذي يسمع أول الآيات ولا يسمع ما بعدها قد يأخذ من الرجاء نصفه، بينما القرآن يعلمه الرجاء الذي يعيد العبد إلى ربه.

١ الطبري، جامع البيان، تفسير الفتح: ٦.

يجتمع في القلب رجاء الرحمة والحرص على العمل: خوف
يردّه عن المعصية، ورجاء يعينه على العودة، وثقة بالله لا
تدّعي معرفة الغيب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال النبي ﷺ:

«يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني،
فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ
ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه
ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي
أتيته هرولة».^٢

في هذا الخبر حسن ظن وذكر وتقرب. إنه يدعوكم إلى الإقبال
على ربك، ويفتح لك من الرجاء ما يحملك على عبادته. وحين
تضيق بك نفسك، فابدأ بذكره وسؤاله؛ لا تنتظر أن تزول
مخاوفك كلها حتى تقبل عليه.

حين يعرف القلب ربه، يجد إلى الرجوع سبيلاً: إذا أخطأ تاب،
وإذا أُعطي شكر، وإذا مُنع لم يجعل فوات مراده اتهاماً لربه.
وقد تخفى عليه الحكمة، فيقرّ بحدود علمه، ويبقى متعلقاً
بمن يعلم ما لا يعلم.

٢ صحيح البخاري، كتاب التوحيد، حديث ٧٤٠٥، عن أبي هريرة.

لا تعني هذه المعرفة أن يعيش الإنسان بلا حزن أو خوف. قد يبكي، ويطلب كشف الضر، ويحتاج إلى من يعينه. ومع ذلك يبقى مؤمناً بأن الله رحيم حكيم، وأن ما يجهله من أمره لا يحيط بعلم الله.

ومهمة هذا المجلد أن يبني أصل المعرفة التي يقوم عليها حسن الظن: الرحمة والمغفرة والحكمة واللفظ والعدل والعلم والقدرة والرزق والقرب وصدق الوعد والكرم والشكر والهمة. أما تفصيل أحوال المرض والفقد والرزق والزواج وتأخر الدعاء فله مواضعه في السلسلة؛ ولا نستهلكه هنا إلا بقدر ما يحتاج إليه فهم الأصل. نريد أن يخرج القارئ بمعرفة تصحبه حين تتبدل الوقائع، لا بقائمة نتائج يتوقعها من كل واقعة. ومن هنا نبدأ.

تمهيد

حسن الظن ليس ضمانًا للنتيجة التي أريدها

قد يقول الإنسان: «أنا أحسن الظن بالله، ولذلك أنا متأكد أن هذه الوظيفة ستكون لي». ثم تذهب الوظيفة إلى غيره، فيشعر أن شيئًا في قلبه قد انكسر، لا بسبب فوات الوظيفة وحدها، بل لأن تصويره لحسن الظن نفسه اهتز.

وقد تقول امرأة: «أحسن الظن بالله، ولذلك لابد أن يتم هذا الزواج». أو يقول مريض: «أحسن الظن بالله، ولذلك لابد أن يكون الشفاء قريبًا بالطريقة التي أتوقعها». أو يقول صاحب دعاء قديم: «لو كنت أحسن الظن حقًا لوقع ما أريد الآن».

وراء هذه العبارات أمل مفهوم، لكنها تجمع بين أمرين مختلفين: حسن الظن بالله شيء، والجزم باختيار الله في واقعة مستقبلية شيء آخر.

أنت مأمور أن تعرف الله برحمته وحكمته وقدرته وفضله، وأن ترجوه، وأن تدعوه، وأن تثق بوعدده. لكنك لم تُعط علم الغيب حتى تقرر أن مقتضى رحمته في حقك هو هذا الخيار بعينه، أو هذا التوقيت بعينه، أو هذه النتيجة بعينها.

قد يكون المطلوب خيرًا لك، وقد لا يكون. قد يأتي سريعًا، وقد يتأخر. وقد يفتح الله بابًا آخر لم يكن في حسابك. ولا نعلم الحكمة الخفية لكل تأخير أو صرف؛ الذي نعلمه أن علم الله كامل، وأن جهلنا بحكمة الواقعة لا ينفي حكمته، وأن رحمته لا تُقاس بموافقة الأحداث لرغباتنا.

من أخطر آثار الخلط بين حسن الظن وتوقع نتيجة بعينها أن الإنسان يجعل خطته الخاصة معيارًا لعلاقته بالله. ما دام الباب يُفتح فهو يظن خيرًا، فإذا أغلق الباب بدأ يسأل: لماذا لم يحدث ما وعدت نفسي به باسم حسن الظن؟

وهنا ينبغي أن نعيد الجملة إلى أصلها: الله لم يعدك بكل ما تتخيله. لكنه أخبرك عن نفسه بما هو أعظم من خيالك: أخبرك عن رحمته، ومغفرته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، وعدله، وقبول توبة التائبين، وعدم إضاعة عمل العاملين. فحسن الظن الصحيح يتعلق بما علمك الله عن نفسه، لا بما كتبت أنت في ذهنك ثم نسبته إلى الله.

وهذا لا يطفئ الأمل؛ بل يحرره. لأن الأمل الذي لا يعيش إلا على نتيجة واحدة هش. أما الرجاء الذي يتعلق بالله، فيبقى قائمًا وإن تغيرت النتائج. تستطيع أن تدعو بالراح، وأن

تطلب الشيء نفسه، وأن تقول: يا رب أرجوه وأحبه، من غير أن تجعل إيمانك برحمة الله رهينة موافقته لرغبتك.

وحين يتبين للإنسان هذا المعنى، يستطيع أن يسأل الله ما يحب ويأخذ بأسبابه، مع بقاء رجائه أوسع من نتيجة واحدة. هذا هو الفرق الذي نحتاج إلى تثبيته منذ البداية: تعلق القلب بالله، مع السعي فيما أذن به من الأسباب.

الفصل الأول

وما قدرُوا الله حق قدره

ليس مصادفة أن يبدأ طريقنا من التعظيم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. [الزمر: ٦٧].

لم يعظم هؤلاء ربهم حق تعظيمه؛ جعلوا معه غيره، وهو العظيم القادر المالك. تأمل كيف جاءت الآية بذكر الأرض والسموات، ثم نزهت الله عن شركهم. ما عظموا من دونه لا يخرج عن ملكه، وما غاب عن أبصارهم لا يغيب عن قدرته.^٣

الآية في سياقها تتحدث عن خلل عظيم هو الشرك، فلا يجوز أن ننقل حكمها الخاص إلى كل ضعف عابر في القلب. لكن فيها أصلًا لا غنى لنا عنه: أن فساد العلاقة بالله يمكن أن يبدأ من فساد المعرفة بقدره وعظمته.

٣ الطبري وابن كثير، تفسير الزمر: ٦٧.

ومن هنا نفهم لماذا لا يكفي أن نكرر على القلب: «ثق، اطمئن، أحسن الظن». القلب لا يعيش طويلاً على الأوامر المجردة. هو يحتاج إلى أسباب معرفية يطمئن إليها: بمن أثق؟ ولماذا؟ من الذي أدعوه؟ ما الذي أخبرني به عن نفسه؟ ما الذي وعد به؟ وما الذي لم يعد به؟

إنسان لا يعرف من أسماء الله وصفاته إلا كلمات متناثرة قد يبني علاقته بالله على الأحداث اليومية وحدها. فإذا جاءه ما يحب قال: الله يحبني. وإذا تأخر ما يريد خاف أن يكون قد تُرك. وإذا رأى مَنْ عصى الله في سعة من الدنيا اضطرب، وإذا أصاب الصالح بلاءٌ سأل سؤالاً يحمل في داخله معادلة لم يضعها الوحي أصلاً: لماذا لم تكن الطاعة طريقاً إلى الراحة الدنيوية الدائمة؟

المشكلة هنا ليست في السؤال الإنساني نفسه؛ فالإنسان يسأل ويتألم ويحاول الفهم. المشكلة حين نكون قد بنينا تصوراً عن الله لم يبينه الله لنا، ثم نحاسب القدر على مخالفته.

لذلك يحتاج حسن الظن إلى معرفة أسبق منه. وكلما صححت معرفتك بالله، بدأت تصح توقعاتك منه. تعرف أن رحمته لا تعني أن الدنيا ستخلو من الألم. وأن حكمته لا تعني أنك ستفهم كل حكمة. وأن كرمه لا يعني أن كل طلب سيأتي

بالصورة التي تختارها. وأن المغفرة لا تعني الاستهانة بالذنب. وأن التوكل لا يعني ترك السبب. وأن القدرة لا تعني أن الله ملزم بأن يفعل لك كل ما يستطيع؛ فهو سبحانه يفعل ما يشاء بحكمة.

تتضح بهذه المعرفة حقيقة ما نرجوه، فلا تبقى علاقتنا بربنا تابعة لتقلب الأحداث.

معرفة لا تشبه معرفة الأشياء

حين نتحدث عن معرفة الله، فنحن ملتزمون بما عرّف الله به نفسه وما صح عن رسوله ﷺ. لا نصف الله من خيالنا، ولا نحول الصور الأدبية إلى صفات إلهية، ولا نقيسه بخلقه. قال تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قد تضيق معرفة الإنسان بربه حين يقيسه بما يعرفه من الناس: بمن يجهل حاله، أو يعجز عن نفعه، أو يتغير عليه. والله سبحانه منزّه عن مماثلة خلقه. وكلما تذكرت هذا، كان دعاؤك أبعد عن تلك المقاييس وأقرب إلى الافتقار إليه.

المحبة الصادقة لا تحتاج إلى أن نخترع لله صفات لم يثبتها.
بل يكفيها ما عرّف الله به نفسه، وهو أصدق وأعظم وأغنى
من كل صورة يصنعها الأدب.

ماذا يحدث حين يصغر العلم بالله في القلب؟

قد يبقى الإنسان مسلمًا مؤمنًا، لكنه يعيش بأجزاء من المعرفة
لا بصورة متوازنة. يسمع عن العقوبة حتى يكاد ينسى سعة
الرحمة. أو يسمع عن الرحمة حتى يكاد ينسى الحكمة والأمر
والنهي. يسمع عن الرزق فيظن أن التوكل ترك للأسباب، أو
يسمع عن الأسباب فيتصرف كأنها مستقلة بذاتها. يسمع عن
إجابة الدعاء فيجعلها معادلة زمنية، فإذا لم تقع النتيجة في
وقته اتهم نفسه أو اضطرب تصوره.

التربية الإيمانية ليست أن نختار صفة واحدة ونبني عليها
الحياة كلها. الله عرّفنا بنفسه في الوحي تعريفًا يربي القلب
بالرجاء والخوف، والمحبة والتعظيم، والافتقار والثقة. وحسن
الظن السليم يولد من هذه المعرفة المتوازنة.

يبقى السؤال قريبًا من حياتك: ما الذي أخبرك الله به عن
نفسه؟ وكيف يغيّر تصديقك بهذا الخبر نظرتك إلى ما تخافه
وترجوه؟

التعظيم يغيّر حجم المشكلة

المشكلة التي أمامك قد لا تصغر في الواقع، لكن معرفتك بمن بيده الأمر تغير موقعها داخل قلبك.

هذا لا يعني أن المؤمن لا يتألم. من الخطأ أن نصور الإيمان كأنه مخدر للمشاعر. الإنسان قد يبكي ويخاف ويحتار، وقد يطلب من الله كشف الضر، وقد يسعى بكل ما يستطيع. لكن خلف هذه الحركة كلها يمكن أن يوجد يقين أهدأ: أن الأمر ليس خارج ملك الله، وأن قدرة الله لا تقاس بقدرتي، وأن جهلي بالمآل لا يعني أن المآل مجهول عند الله.

إذا ضعف هذا التعظيم، قد يشتد تعلق القلب بالأسباب: بقرار المدير، وعلاج الطبيب، وحركة السوق، وقبول شخص يحبه. وقد يغفل في انشغاله بها عن افتقاره إلى الله. وإذا حضر التعظيم، عادت الأسباب إلى حجمها الصحيح: نأخذ بها، نحترم سننها، نطلب خبرة أهلها، لكننا لا ننقل إليها ما هو لله وحده.

ومن هنا تتصل الثقة بالتوكل؛ فالقلب يقبل على من يحسن الظن به. وكلما عرفت رحمة الله وعدله ووفاءه بوعده، ازدادت افتقارًا إليه واعتمادًا عليه.

٤ ابن القيم، مدارج السالكين، منزلة التوكل، الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله.

وليس اعتمادك عليه اشتراطًا لوقوع ما تختاره؛ إنك تسأله ما تحب، وتعلم أنه أعلم منك بما يصلح لك.

لا تجعل نفسك مركز تعريف الرحمة

حين يقول الإنسان: «لو كان الله رحيماً بي لأعطاني كذا»، فقد جعل تصويره الشخصي لتعريف الرحمة هو الحاكم. وقد يكون ما طلبه حلالاً محبوباً، وقد يكون فواته مؤلماً فعلاً، ولا نطلب منه أن يتظاهر بأن الفقد لا يؤلمه. لكن فرقاً كبيراً بين قول: «يا رب، هذا يؤلمني ولا أفهم حكمته» وقول داخلي آخر: «بما أني لا أفهم، إذن لا حكمة».

الأول اعتراف بحدود الإنسان. والثاني حكم على الله من داخل حدود الإنسان.

ومثل ذلك في المغفرة. قد يقول العبد: «أنا مذنب جداً، فلا أظن أن الله يغفر لي». يبدو الكلام تواضعاً، لكنه إذا أصر على القنوط بعد نصوص الوعد للمقبل التائب، صار تقدير الذنب في قلبه أكبر من تقدير سعة مغفرة الله التي أخبر بها. المطلوب ليس أن يصغر الذنب في عينه، بل أن يكبر عنده ربه: يخاف الذنب، ويعترف به، ويتوب، ولا يقنط.

تعظّم حق الله فلا تستهين بمعصيته، وترجو رحمته فلا تقنط منها.

من علامات المعرفة الصحيحة أن تحفظ وعد الله

من حسن الأدب مع الله أن تنسب إليه ما قاله، لا ما تمنيت أن يقوله.

إذا وعد بالمغفرة للتائب، فهذا باب حسن ظن. إذا أخبر أنه لا يضيع أجر المحسنين، فهذا باب حسن ظن. إذا أخبر بسعة رحمته وعلمه وحكمته، فهذا باب حسن ظن. أما أن تقول: «لأن الله كريم، إذن لابد أن أنجح في هذا المشروع بعينه»، فقد انتقلت من الإيمان بصفة ثابتة إلى استنتاج مستقبلي لم يَعدك الله به.

وقد ينجح المشروع، وقد يكون النجاح من فضل الله. لكننا لا نحتاج أن نختلق وعدًا حتى نرجو. يكفي أن ندعو ونأخذ بالأسباب ونحسن الظن بما ثبت من صفات ربنا، ثم نترك الغيب لمن يعلمه.

ومع هذا الفهم يتسع رجاؤك. قد يتعذر سبب كنت ترجوه، ويبقى باب الدعاء مفتوحًا، ويبقى اعتماد قلبك على الله.

راجع ما تعرفه عن ربك

ليس المطلوب أن تحفظ تعريفاً. المطلوب أن تبدأ بمراجعة الصورة التي تحملها في قلبك عن ربك.

عندما تقع لك مصيبة، ما أول معنى يتبادر إلى قلبك عن الله؟
عندما تذنّب، هل ترى باب التوبة مفتوحاً أم ترى نفسك خارج الرحمة؟
عندما تتأخّر الإجابة، هل يتحول التأخير عندك إلى اتهام، أم تستطيع أن تقول: لا أعرف لماذا تأخّر، لكنني أعرف من أدعو؟
عندما تضيق الأسباب، هل تصغر قدرة الله في شعورك لأن ما في يدك قليل؟

قد لا تجيب عن هذه الأسئلة كلها في جلسة واحدة، لكنها تعينك على معرفة ما يحتاج إلى تصحيح. وحين تعرف موضع الاضطراب، عد إلى ما أخبرك الله به عن نفسه، ودع هذا العلم يصحبك في الدعاء والعمل.

الفصل الثاني

الرحمة التي عرّف الله بها نفسه

قبل أن يطلب منك أحد أن «تشعر» برحمة الله، تأمل أن الله هو الذي أخبرك عنها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. [الأنعام: ٥٤].
وقال سبحانه: ﴿وَكَتُبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾. [الأعراف: ١٥٦]. وفي دعاء حملة العرش للمؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾. [غافر: ٧].

هذه أخبار من الله عن رحمته. لا تتغير حقيقتها بتقلب ما تشعر به؛ فارجع إليها حين يضيق بك تصورك أو تكثر عليك مخاوفك.

لكن أول ما يجب أن نتعلمه في باب الرحمة هو أن نقرأ النص كاملاً، لا أن نأخذ الشطر الذي يوافق ما نريد ونترك سياقه. ففي الأنعام يأتي خبر الرحمة مع ذكر من عمل سوءاً ثم تاب وأصلح. وفي الأعراف، بعد قوله تعالى إن رحمته وسعت كل شيء، يذكر كتابة الرحمة للذين يتقون ويؤتون الزكاة ويؤمنون بآياته. وفي سورة الزمر، يأتي النهي عن القنوط، ثم يأتي الأمر بالإنابة والإسلام والاتباع.

هذا التلازم لا يضيق الرحمة، بل يعلمنا كيف ندخل بابها.

حين يسيء الذنب تعريفك لربك

قد يوقظ الذنب في الإنسان ندمًا يدعوهُ إلى التوبة، وقد يستدرجه إلى يأس يصده عنها. والفرق بينهما مهم: فالندم يعترف بالخطأ ويطلب إصلاحه، أما اليأس فيقول لصاحبه: لقد انتهيت، لا باب لك، لا يمكن أن تُقبل بعد هذا. وليست الدعوة إلى الندم دعوة إلى لوم يستغرق العمر أو إلى إبقاء الألم بعد التوبة؛ المقصود رجوع العبد إلى ربه.

في سورة الزمر يأتي الخطاب إلى المسرفين على أنفسهم.
ليست الآية خطاباً لأناس بلا ماضٍ، بل لمن أثقلوا ظهورهم.
ومع ذلك كان أول ما نودي عليهم به ألا يقنطوا من رحمة الله.
ثم لم تترك قلوبهم في حالة أمل ساكن؛ بل دُعوا إلى الإنابة
والإسلام والاتباع.

هذا من أجمل مواضع التوازن في موضوعنا: الله لا يطلب من
المذنب أن ينكر ذنبه حتى يرجو، ولا يطلب منه أن ييأس
بسبب ذنبه حتى يتوب. يراه ذنباً، ويعرف أنه عبد لرب يغفر،
ثم يتحرك.

دعوة المغفرة تشمل المسرفين المقبلين على الله بالتوبة. فلا
يحمل المذنب ماضيه حجة على اليأس، ولا يحمل الوعد
حجة على البقاء في المعصية. من صدّق سعة المغفرة
استجاب لدعوة الرجوع.

٥ الطبري، جامع البيان؛ وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الزمر: ٥٣-٥٥.

الرحمة لا تحتاج إلى إنكار الحقيقة

أحياناً يظن الإنسان أن حسن الظن يعني أن يقنع نفسه بأن الأمر ليس سيئاً. أخطأت؟ لا بأس. قصرت؟ الأمر هين. ظلمت؟ لا تفكر كثيراً. وهذا ليس ما تعلمه نصوص التوبة.

يمكن أن تقول في اللحظة نفسها: «ما فعلته خطأ عظيم» و«ربي واسع المغفرة لمن تاب». لا تعارض بين الجملتين. بل القوة الإيمانية في اجتماعهما: معرفة حق الله تمنع الاستهانة، ومعرفة رحمة الله تمنع القنوط.

الرجاء الذي يعينك على الرجوع يختلف عن طمأنينة تترك مقيماً على ما يضرّك. تعرف أنك محتاج إلى النجاة، فتطلب أسبابها؛ ولا تجعل الحديث عن الرحمة عذراً لإهمالها.^٦

قد يصعب عليك ترك ما اعتدته، لكن صعوبته لا تمنع البداية. استعن بالله، وابحث عما يعينك، ولا تجعل عثرة الأمس سبباً لإضاعة اليوم.

٦ ابن القيم، الداء والدواء، مبحث حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، ص ٤٩ بحسب العرض الرقمي.

ماذا تفعل معرفة الرحمة بالقلب؟

حين يوقن العبد أن الرحمة خبر ثابت عن ربه، يتغير السؤال الذي يسأله بعد السقوط. بدل «هل انتهيت؟» يصبح «كيف أرجع؟». يعرف أن كثرة ذنوبه لا تخرجه من الدعوة إلى التوبة، من غير أن ينكر مسؤوليته عنها. هذه ثمرة المعرفة التي نعيشها هنا؛ أما ما يتطلبه الرجوع من إقلاع وإصلاح وحقوق فله موضعه في الفصل التالي.

ولا يلزم من التوبة أن تختفي آثار الذنب الدنيوية أو ينتهي كل ألم نفسي فوراً. وطول الماضي المثلث بالذنوب لا يمنع التوبة الصادقة ما دام العبد في وقت قبولها؛ وسيأتي بيان هذا الوقت أيضاً.^٧

ومن هنا يبدأ حسن الظن: لا من إنكار ما فعلت، بل من معرفة من ترجع إليه.

٧ السعدي، تيسير الكريم الرحمن؛ وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير النساء: ١٧-

الرحمة والحكمة: لماذا نحتاجهما معًا؟

إذا عرف الإنسان الرحمة وحدها بطريقة مبتورة، قد يظن أن كل ألم يناقضها. وإذا عرف الحكمة وحدها بطريقة جافة، قد يحول كل مصيبة إلى درس نظري ويطلب من المتألم أن يتوقف عن الحزن لأنه «لابد أن هناك حكمة».

الوحي لا يعلمنا هذا الجفاف. نحن نؤمن برحمة الله وحكمته، ولا نلزم أنفسنا بمعرفة الحكمة التفصيلية من كل حادثة. وقد يبقى الألم ألمًا، ويكون طلب كشفه مشروعًا، ويكون البكاء طبيعيًا، مع بقاء أصل الإيمان بأن الله لا يفعل عبثًا ولا يظلم.

وحين يخفى عليك وجه الحكمة، يبقى ما عرفته من رحمة الله معيّنًا لك على سؤاله وطلب الفرج. وسيأتي للحكمة موضعها؛ أما هنا فنعود إلى البشارة التي فتحت للمذنب طريق الإصلاح.

بشارة تفتح طريق الإصلاح

من السهل أن يقرأ المذنب الحديث عن الرحمة وهو يتوقع أن يجد في آخره ما يخرج منه. يظل يفتش عن سبب يجعل حاله استثناءً: ربما لأن الذنب تكرر، أو لأنه عرف قبحه ثم

فعله. ولهذا تستحق آية الأنعام أن نقرأها بتأنٍ. ففيها سلام وبشارة، ثم ذكر للسوء، ثم توبة وإصلاح. لم يُحذف الذنب من الحديث، ولم يكن ذكره آخر الكلام.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. [الأنعام: ٥٤].

كتب الله الرحمة على نفسه تفضلاً وإحساناً، ولم يوجبها عليه أحد. وفي الآية سلام للمؤمنين وبشارة، ثم طريق واضح لمن عمل سوءاً: أن يتوب ويصلح. تعرف بهذا أن ماضيك لا يمنعك من إصلاح ما يأتي.^٨

ولا يخرجك من دعوة الرجوع أنك عرفت التحريم ثم عصيت؛ وسيأتي بيان معنى الجهالة في الفصل التالي، في مبحث «إذا كنت تعرف أنه حرام».

٨ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الأنعام: ٥٤.

التوبة رجوع إلى الطاعة مع الندم وترك المعصية. ليست كلمة تقولها لتبقى حياتك كما كانت؛ إنها وجهة جديدة تبدأ بما تستطيع أدائه الآن.^٩

وقد يكون أول الإصلاح واجباً قصرت فيه، أو أذى تكف عنه، أو عملاً فسد فتسعى إلى تصحيحه. تسمع البشارة فتقوى على هذه الخطوة، ويصبح رجاؤك عوناً لك على ما وجب عليك.^{١٠}

هكذا يجد الندم وجهته: رجوعاً وإصلاحاً، لا لوماً يستغرق صاحبه. وتفصيل أحكام التوبة وحقوق الناس يأتي في موضعه؛ أما هذه الوقفة فتعرّفك بالرحمة التي تعينك على الإقبال، وتترك لك أن تبدأ الإصلاح في حياتك.

سعة لا تلغي الطريق

حين نقرأ: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، قد نحب أن نقف عندها طويلاً. وهي أهل لذلك. لكن الوقوف للتأمل غير الوقوف الذي يقطع الكلام عما بعده. فالآية نفسها تذكر التقوى

٩ الطبري، جامع البيان، تفسير الأنعام: ٥٤.

١٠ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الأنعام: ٥٤.

والزكاة والإيمان بالآيات، ثم يأتي وصف اتباع الرسول النبي الأمي في الآية التالية. السعة والطريق إليها يجتمعان في السياق؛ فلا نحتاج إلى إسكات أحدهما لنسمع الآخر.^{١١}

إحسان الله إلى خلقه واسع، والرحمة التي وعد بها أهل التقوى لها أسبابها. فاقراً السعة مع الدعوة إلى الإيمان والاستجابة، ولا تجعل أحد المعنيين يغني عن الآخر.^{١٢}

ومن أثر هذا الفهم أن نتواضع ونحن ننظر إلى أحوال الناس. فالمال والصحة وسهولة بعض الأمور ليست، بمجردنا، شهادة لصاحبها بأنه أصاب في كل ما يعتقد ويفعل. كما أن ضيق الرزق أو المرض لا يمنحنا علماً بسريرة مبتلى، ولا حقاً في الحكم بأنه محروم من رحمة الله. يذكرونا التفريق بين الإحسان العام والرحمة الخاصة بأن المشهد الذي نراه لا يكفي للحكم على منزلة إنسان عند ربه. هذا تنبيه في حدود نظرنا، لا تفسير غيبي لما نزل بأحد بعينه.

وقد يشتبه الأمر على القارئ من جهة أخرى: إذا كانت الآية تذكر التقوى، فهل يلزمنا أن أنتظر حتى أصير بلا ذنب

١١ الأعراف: ١٥٦-١٥٧؛ السياق الكامل، مع تفسير السعدي للآية ١٥٧.

١٢ تفسير الأعراف: ١٥٦؛ الطبري، ابن كثير، السعدي.

لأرجو؟ لقد سبقتنا آية الأنعام إلى الجواب حين ذكرت من عمل سوءًا ثم تاب وأصلح. ليست معرفة أسباب الرحمة إعلانًا بأن الرجوع محصور في قوم لم يخطئوا؛ بل هي دعوة إلى أن تسلك الطريق وأنت تعرف حاجتك إليه. تستطيع أن تطلب المغفرة اليوم، وأن تبدأ إصلاح ما تستطيع، من غير أن تدعي لنفسك كمالًا لم تبلغه.

لهذا نحتاج إلى الآية كاملة. صدرها يرد على ضيق تصورنا، وتمامها يرد على رغبتنا في أمل لا يغير شيئًا في حياتنا. وحين يجتمع المعنيان يبقى للرجاء عمل يؤديه: يقربك من ربك، ويعينك على حمل مسؤوليتك.

يعلمك، ويفتح لك باب الرجوع

في سورة غافر يأتي الجمع الذي يحتاج إليه من أثقله ماضيه: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾. ثم يتجه الدعاء إلى المغفرة للذين تابوا واتبعوا سبيل الله والوقاية من عذاب الجحيم. والقائلون هم حملة العرش ومن حوله، كما أخبرنا الله.^{١٣}

١٣ غافر: ٧؛ الطبري، ابن كثير، السعدي.

قد يتخيل الإنسان أن الرحمة لا تكون إلا ممن لم يعرف عنه كل شيء. يعرفه الناس بوجه حسن، ويخشى أنه لو ظهر ما يخفيه لتغير كل شيء. فإذا حمل هذا التصور إلى علاقته بالله أفسد عليه الرجاء: يتوهم أن علم الله بذنبه حجة على استبعاد المغفرة. لكن الآية تجمع الرحمة والعلم في دعاء واحد. ليست المغفرة ثمرة خفاء الذنب على الله؛ فكل شيء داخل في علمه، وهو الذي دعا عباده إلى الرجوع.

يعلم الله ما عملت وما قلت، وما أخفيت وما أظهرت، وهو الذي فتح لك باب الرجوع. لا تحتاج إلى إخفاء الحقيقة عنه حتى ترجوه؛ بل تأتیه مقرًّا بحاجتك، طالبًا مغفرته. وفي دعاء الملائكة للمؤمنين خبر من لطفه بعباده يوسّع رجاءهم.^{١٤}

ومن هذا الجمع نستفيد معنى قريبًا: لست مضطرًا إلى تخفيف اسم الخطأ حتى تدعو الله. يمكنك أن تعترف بما فعلت، وأن تسأل المغفرة من غير محاكمة طويلة تحاول فيها إقناع نفسك بأن الذنب لم يكن ذنبًا. فالصدق في الرجوع أليق بهذا المقام من كثرة الأعذار. وليس المقصود أن تعرض

١٤ غافر: ٧؛ الطبري، ابن كثير، السعدي.

تفاصيل ذنبك على الناس؛ الحديث هنا عن إقرارك بينك وبين ربك ومسؤوليتك عن إصلاح ما أفسدت.

والخير الذي أخبر الله به أوسع من دائرة من تعرفهم في حياتك. تخرج أن تكون من أهل هذا الدعاء، وتعمل بما وصفهم به: التوبة واتباع سبيل الله.

مشهد علم النبي به أصحابه

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال:

«قدم على رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تبتغي، إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال رسول الله ﷺ: لله أرحم بعباده من هذه بولدها».^{١٥}

السبي هم الأسرى، و«تبتغي» أي تطلب. رأى الصحابة فعل المرأة بصبيها، وأجابوا بما ظهر لهم من رحمتها به. ثم جاء الخبر النبوي بما لا يستقل المشهد بإخبارهم به: الله أرحم

١٥ صحيح مسلم، كتاب التوبة، حديث ٢٧٥٤، واللفظ له.

بعباده. هذا هو المعنى الذي يدعوك إلى التعلق بالله وطلب حاجتك منه؛ رحمة تليق به سبحانه، لا تماثل رحمة خلقه.^{١٦}

وقد لا تكون تجربة كل قارئ مع أمه دافئة. من عرف قسوة في بيته لا نطالبه بإنكارها حتى يفهم الحديث؛ فالنص يصف هذه المرأة وما ظهر منها، ولا يقرر أن كل أم في كل حال تجسد الرحمة. مرجعنا في معرفة الله هو خبره وخبر رسوله، لا سلامة تجاربنا الأسرية كلها. وربما احتاج من تأذى إلى أن يسمع هذا الفرق قبل أن يسمع مزيدًا من الصور العاطفية.

وتصحب هذه البشارة بقية نصوص الوعد والوعيد، فلا تصبح أمًا من العقوبة مع الإصرار على الذنب. ترجوه فتقبل عليه، وتسأله العافية والمغفرة.^{١٧}

ما نراه من التراحم

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

١٦ ابن حجر، فتح الباري، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، شرح حديث عمر، العرض الإلكتروني ج ١٠ ص ٤٤٥-٤٤٦.

١٧ ابن حجر، فتح الباري، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، شرح حديث عمر، العرض الإلكتروني ج ١٠ ص ٤٤٥-٤٤٦.

«جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه».^{١٨}

تستوقفك هذه الحركة الصغيرة: حافر يُرفع حتى لا يصيب ضعيفًا. ما قد تمر به سريعًا في عالم الأحياء جاء في الحديث موضعًا للتعليم والتذكير.

تتذكر بهذا الخبر أصل ما تشهده من تراحم الخلق، فيصير الرفق الذي تألفه سببًا للشكر. والعدد في الحديث متعلق بهذه الرحمة التي يتراحم بها الخلق؛ فلا تتوهمه تجزئةً لصفة الله.^{١٩}

قد يطغى مشهد القسوة على انتباه الإنسان حتى ينسى أن في العالم رفقًا أيضًا. وليس تذكر الرحمة طلبًا منه أن يتجاهل ظلمًا وقع عليه أو أن يترك دفعه. يمكنه أن يطلب حقه، وأن يحمي من يؤذي، وأن يبقى قلبه مفتوحًا لمعرفة الخير. ولا يغنيه ذلك عن المساعدة التي يحتاج إليها.

١٨ صحيح البخاري، كتاب الأدب، حديث ٦٠٠٠.

١٩ ابن حجر، فتح الباري، باب جعل الله الرحمة مائة جزء، الموضع الإلكتروني، ج ١٠ ص ٤٤٦-٤٤٨.

ومن نعم الله التي تستحق أن تتذكرها الإسلام والقرآن والصلاة، وما تتعلمه من عبادته. فلا تحصر الرحمة في مشهد يرق له قلبك؛ انتبه أيضًا إلى نعمة الوحي الذي يهديك ويعرفك بربك.^{٢٠}

وحين تعود بعد هذه النصوص إلى الدعاء، فأنت لا تحتاج إلى اختراع سبب جديد للرجاء. في معرفتك بربك ما يدعوك إلى سؤاله. قد يبقى في صدرك وجع، وقد تكون أمامك حقوق تحتاج أن تؤديها وخطوات إصلاح لم تتم؛ ومع ذلك تستطيع أن تقول: رب اغفر وارحم. ما تعلمته عن الرحمة يصحبك إلى هذا الدعاء، وإلى العمل الذي يليه.

خبر يسبق مخاوفك

قد يأتيك الرجاء مترددًا؛ تحاول أن تطمئن، ثم يغلبك تذكر التقصير. وليس عليك أن تعتمد على قوة شعورك وحدها. عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ:

٢٠ النووي، شرح صحيح مسلم، شرح حديث ٢٧٥٢، ضمن باب سعة الرحمة؛ النص الإلكتروني يعرض ج ١٧ ص ٢٣٦.

«لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش:
إن رحمتي غلبت غضبي».^{٢١}

هذا خبر من ربك تعرفه قبل أن تنظر في تقلّب نفسك. فإذا
ضعف رجائك، فعد إليه؛ لا تجعل اضطراب شعورك أصدق
عندك مما أخبر الله به.

تتلقى خبر ربك بأدب: تثبت ما أخبر به عن نفسه، وترجو
رحمته، وتخاف غضبه. يجتمع المعنيان في الحديث، فيبقى
الرجاء معيّنًا على الطاعة، ولا يصير إذّنًا بالمعصية.^{٢٢}

ولعل من أثر هذه المعرفة أن يتغير موضع الوقوف بعد الخطأ.
فبدل أن تقف طويلًا عند السؤال: هل أستطيع أن أشعر
بالأمل؟ تستطيع أن تبدأ بما ذلك عليه الخبر من الرجاء، ولو
بقيت نفسك مضطربة. تدعو، وتترك ما علمت أنه خطأ،
وتسأل عن الواجب الذي جهلته. هذه استجابة يمكنك قصدها؛
أما مقدار السكينة وسرعة حضورها فليس شرطًا نضيفه من
عندنا لقبول توبتك.

٢١ صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، حديث ٣١٩٤.

٢٢ صديق حسن خان، السراج الوهاج، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها تغلب
غضبه، ج ١١ ص ٦١-٦٣ بحسب العرض الإلكتروني؛ نقل بالمعنى.

الفصل الثالث

حين تعرف من تتوب إليه

ربما لا تكون أصعب لحظة بعد الذنب هي لحظة انكشافه، بل اللحظة التي يختلط فيها الندم بالخوف من أن الرجوع لم يعد ممكنًا. تعرف أنك أخطأت، وتعرف أن عليك أن تتغير، لكنك تؤجل الخطوة الأولى وأنت تنظر إلى ما تراكم خلفك. يبدو لك أن عليك أن تصلح حياتك كلها قبل أن يحق لك أن تقول: رب اغفر لي.

غير أن التوبة هي بداية هذا الرجوع. وما عرفناه في الفصل السابق عن الرحمة يصبح هنا معرفة نتحرك بها. لسنا بصدد محو الماضي من الذاكرة أو إعطاء النفس اسمًا جديدًا؛ نحن أمام عبد يقر بذنبه، ويتركه، ويقصد طاعة ربه. قد تكون أمامه أمور كثيرة تحتاج إلى إصلاح، لكنه لا يحتاج إلى تأجيل ما قدر عليه حتى يفرغ منها جميعًا.

التواب الرحيم

في خبر آدم عليه السلام خطيئة لم تُغلق طريق الرجوع؛ فقد علّمه الله بعدها كلمات يتوب بها إليه. قال سبحانه:

{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ} إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ}. [البقرة: ٣٧].

في الآية فعل للعبد وفعل لربه: تلقى آدم الكلمات ورجع، فتاب الله عليه. وشرح الطبري توبة العبد بأنها إنابته إلى الطاعة وتركه ما يسخط الله، وشرح توبة الله على عبده بأنها أن يرزقه التوبة، وينقله من العقوبة إلى العفو والصفح. وبَيَّن السعدي في الموضع نفسه أن من رحمة الله بعبده أن يوفقه للتوبة ثم يقبلها منه إذا استوفت معناها.^{٣٣}

لهذا يجيء الاسم هنا في صيغة تدل على كثرة قبول التوبة: التواب. لست أمام قبول وقع مرة ثم انقطع، ولا أمام باب لا يفتح إلا لمن لم يسبق له أن أخطأ؛ أنت أمام رب دعا عباده إلى الرجوع، وسمى نفسه التواب الرحيم. لكن الاسم لا يجعل مجرد التلفظ بديلاً عن الرجوع: آدم تلقى كلمات ربه، واعترف بظلمه، وطلب المغفرة والرحمة؛ فلم يكن في قصته تجميل للذنب ولا إصرار عليه.

وفي ختام آية المحيض قال سبحانه: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا

٣٣ البقرة: ٣٧؛ تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، وتفسير السعدي.

تَقَرَّبُوهُنَّ حَتَّى يَظْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: ٢٢٢].
جاءت الجملة في سياق أمر ونهي وطهارة، لا في فراغ من التكليف. وفسر الطبري التوابين بالراجعين مما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه، وفسر السعدي التعبير بمن يتوبون من ذنوبهم على الدوام.^{٢٤}

إن وقوعك في الذنب لا يجعل الذنب محبوباً، وتكرار الرجوع لا يجعل تكرار المعصية خطة مشروعة. الذي يحبه الله هو التوبة والطهارة، لا الطريق الذي لوث صاحبه ثم أبقاه فيه. لذلك لا تقل: ما دام الله يحب التوابين فسأؤجل القطع مع الذنب؛ بل قل: ما دام يحب رجوعي فلن أجعل الخجل حجة للهرب منه.

تعرف من هذه النصوص إلى من ترجع، وأن الرجوع محبوب إليه. فامض في التوبة وشروطها وآثارها، راجياً القبول من غير يأس ولا تزكية للنفس. ولا تجعل خاطراً عابراً علامة غيبية تجزم بها بقبول عملك أو بخاتمتك.

٢٤ البقرة: ٢٢٢؛ تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، وتفسير السعدي.

هكذا تصبح معرفة الاسم بداية حركة لا نهاية مساءلة. تقول:
يا تواب، تب عليّ؛ ثم تترك ما علمت أنه يغضبه، وترد ما
استطعت من الحقوق، وتسال عما جهلته. وإذا ضعفت بعد
ذلك، لم تجعل ضعفك تعريفاً نهائياً لك؛ جدد الصدق والعمل،
ولا تجعل يوم الخطأ آخر القصة.

لا تجعل يوم الخطأ آخر القصة

عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال:

«إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار،
ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس
من مغربها».^{٢٥}

تأمل تعاقب الليل والنهار في الحديث. يمضي زمن وقعت فيه
الإساءة، ويأتي بعده زمن يمكن فيه الرجوع. لا يلزم من أنك
أضعت بعض يومك أن تسلم بقيته للخطأ. وليس انتظار
مناسبة جديدة جزءاً من التوبة: ابدأ بالإقلاع عن المعصية،
وبأداء ما علمت وجوبه عليك.

٢٥ مسلم، الصحيح، حديث ٢٧٥٩؛ وابن باز، شرح رياض الصالحين، باب التوبة، شرح
حديث أبي موسى في بسط اليد.

إساءة النهار لا تمنع رجوع الليل، وإساءة الليل لا تقطع طريق النهار. فلا تجعل شعورك بالخل سببًا للابتعاد عن التوبة التي تحتاج إليها.^{٢٦}

إذا كنت تعرف أنه حرام

من الأسئلة التي تثقل بعض المذنبين: كيف أتوب وقد فعلت ما فعلت وأنا أعرف؟ وقد يقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوَّاءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. [النساء: ١٧]، فيظن أن الآية أبقتة خارجها لأنه لم يكن يجهل الحكم.

الجهالة هنا لا تقتصر على عدم معرفة التحريم؛ يدخل فيها فعل السوء نفسه ولو عرف صاحبه الحكم. معرفتك بقبح الفعل تزيد مسؤوليتك، لكنها لا تجعل التوبة مستحيلة. وليس عليك أن تدعي أنك لم تكن تعلم حتى تسأل المغفرة.^{٢٧}

٢٦ مسلم، الصحيح، حديث ٢٧٥٩؛ وابن باز، شرح رياض الصالحين، باب التوبة، شرح حديث أبي موسى في بسط اليد.

٢٧ الطبري، جامع البيان، النساء: ١٧، ترجيحه في معنى الجهالة، وبيانه للندم والعزم في تفسير «من قريب».

والأقرب إلى الصدق أن تقول: عرفت وقصرت، وأنا أريد الرجوع. ثم تنظر فيما يتطلبه رجوعك من ندم وترك للمعصية وعزم على عدم معاودتها. التوبة تغير وجهتك، فلا تنشغل بتحسين الأعذار عن تصحيح العمل.

بادر وأنت في وقت القبول

سعة الباب لا تعني أن وقت الدخول فيه لا ينتهي. قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]. فبادر بتوبة الاختيار، ولا تؤخرها إلى وقت المعاينة الذي يزول فيه مجالها.^{٢٨}

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه».^{٢٩}

٢٨ السعدي، تيسير الكريم الرحمن؛ وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير النساء: ١٧-١٨.

٢٩ صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٢٧٠٣.

وليس لأحد أن يعلم ما بقي له من العمر، فيجعل امتداده عذراً للتأجيل. كما أن شدة مرض إنسان لا تمنحنا حق الحكم بأن وقت توبته قد انقضى.

هذه المعرفة تدعوك إلى خطوة حاضرة. قد لا تستطيع إنهاء كل تبعات الماضي في ساعة، لكنك تستطيع أن تبدأ بما يلزمك الآن، وأن تسأل أهل العلم عن التفاصيل التي لا تعرف حكمها. المبادرة لا تعني الوعد بأن الإصلاح سيكون سهلاً؛ معناها ألا تزيد التأخير وأنت تعرف جهة الرجوع.

رجاء يصحبك إلى آخر الطريق

لا تعني المبادرة إلى التوبة أن يتحول تذكير الإنسان بالموت إلى إغلاق لباب الرجاء في وجهه. عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول:

«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن».^{٣٠}

يصاحب هذا التوجيه ما سبق من الحث على المبادرة. ما دمت قادراً على العمل، فاجمع رجاءك مع طاعة ربك وترك ما

٣٠ صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، حديث ٢٨٧٧.

يغضبه. وإذا دنا الموت، فلا تجعل تذكر التقصير يحجب عنك سعة الرحمة؛ أقبل على الله راجيًا عفوه ومغفرته، مفتقرًا إليه. ليس في الحديث دعوة إلى تأخير الرجوع، ولا وعد للإنسان بأن يدرك غدًا يستدرك فيه ما فاتته.

ومن أثره في خطابنا للمريض أن نرفق به حين نذكره بربه. لا نعامله كأننا نعرف مصيره، ولا نحمل إليه تخويفًا يقطعه عن الدعاء. نستطيع أن نذكره بما يرجو من رحمة الله من غير أن نَعِدَه بشفاء مخصوص أو نشهد بقبول شخص بعينه. وقد يبقى الألم والخوف، فلا نجعل زوالهما امتحانًا لصحة رجائه. هذه دلالة نستصحبها في الكلام والمواساة، وليست وصفة علاجية أو حكمًا على ما في القلب.

وإذا تكرر السقوط؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل، قال:

«أذنب عبد ذنبًا فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم

عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى:
أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب،
واعمل ما شئت فقد غفرت لك».^{٣١}

عرف العبد ربه وطلب مغفرته كلما أذنب. وفي هذا السياق
يُفهم آخر الحديث: ليس ترخيصًا في المعصية، بل بشارة لمن
يجدد التوبة كلما وقع في الذنب. فالتوبة الصادقة لا تُغلق
لمجرد تكرار السقوط.^{٣٢}

فلا تستدل بمجرد وقوعك مرة أخرى على أن كل رجوع سابق
كان كذبًا، ولا تتخذ إمكان الرجوع خطة لتكرار الإساءة. الذي
يلزمك الآن أن تتوب من الخطأ الذي وقع. أما الوعد لنفسك
بأنك ستعصي ثم تصلح الأمر لاحقًا فليس هو العزم على ترك
المعاودة الذي تقدم بيانه.

وقد يحتاج تصحيح المسار إلى تغيير أمر واقعي في حياتك،
أو سؤال من يحسن إرشادك، أو معالجة حق ضيعته. لا يغني
لوم النفس عن ذلك. ما نثبته هنا هو أصل الوجهة: كلما

٣١ صحيح مسلم، كتاب التوبة، حديث ٢٧٥٨.

٣٢ النووي، شرح صحيح مسلم، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب
والتوبة، شرح ٢٧٥٨، نقل بالمعنى من الموضع الإلكتروني.

احتجت إلى المغفرة، فاطلبها بتوبة صادقة، ولا تجعل إخفاقك حجة لترك ما بقي في مقدورك من الخير.

حين لا يكفي أن تقول: سأتركه

قد تصدق في رغبتك في الرجوع، ثم تبقي حولك الطريق نفسه الذي يعيدك إلى الذنب: صحبة تزيينه، أو مجلسًا يهون عاقبته، أو وسيلة تفتح بابه كلما أغلقتها. هنا لا يكفي أن تراقب شعورك؛ تحتاج أن تنظر في السبب الذي تستطيع تغييره.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، في حديث الرجل الذي قتل مائة نفس، قال:

«كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة فقال لا. فقتله فكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه

ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله. وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرًا قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له. فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة»^{٣٣} لم يقف جواب العالم عند فتح باب الرجاء، بل دل الرجل على طريق عملي: أن يفارق أرض السوء، ويلتحق بقوم يعبدون الله. يشرح النووي أن في ذلك استحباب مفارقة المواضع والأصحاب الذين يعينون على الذنب، واستبدال صحبة الخير بهم. فالعلم الصحيح لم يقل له إن الجريمة هينة، ولم يغلق الباب في وجهه؛ فتح له باب التوبة، ثم وجهه إلى ما يعينه على صدقها.^{٣٤}

وليس معنى هذا أن كل توبة تستلزم سفرًا أو قطيعة عامة. قد يكون الذي تحتاج إلى مفارقتة تطبيقًا على هاتفك، أو مجلسًا بعينه، أو مالا يصل إلى يدك بطريق محرم، أو وقتًا

٣٣ مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، حديث ٢٧٦٦، عن أبي سعيد الخدري؛ والنووي، شرح صحيح مسلم، شرح الحديث نفسه.

٣٤ مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، حديث ٢٧٦٦، عن أبي سعيد الخدري؛ والنووي، شرح صحيح مسلم، شرح الحديث نفسه.

تخلو فيه بسبب تعرفه. وقد يكون لبعض العلاقات حقوق لا يجوز قطعها، لكنك تستطيع أن تغير الصورة التي يقع فيها الأذى، وأن تسأل عن الحكم حين تتعارض عليك الواجبات. المقصود أن تعالج السبب المعروف بقدر استطاعتك، لا أن تجعل شعار «تغيير البيئة» حكمًا واحدًا لكل الناس.

والحديث لا يجعل الانتقال المكاني كافيًا وحده، ولا يمنحنا قاعدة نحكم بها على خاتمة شخص نعرفه. إنما نصدق الخبر الذي رواه النبي ﷺ، ونأخذ منه أن القلب المقبل على الله يترجم رجوعه إلى حركة ممكنة. أما حقوق من وقع عليهم الظلم فلا تمحوها مسافة يقطعها التائب؛ لها أحكامها، وسيأتي تفصيلها في هذا الفصل.

لا تضيف إلى الوعد ما ليس فيه

قد يسمع القارئ أن وعد المغفرة في آيات التوبة متعلق بالرجوع، فيظن أن كل من مات بذنب دون الشرك ولم يتب منه قد حُكم عليه حتمًا بالعذاب. هذا حكم زائد لا تمنحه تلك الآيات. قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾. [النساء: ٤٨].

من مات على الشرك من غير توبة لا يدخل في المغفرة المذكورة هنا، أما الذنوب التي دونه فهي تحت مشيئة الله: يغفر لمن يشاء، ويعاقب من يشاء. وأما من تاب توبة صحيحة في وقت قبولها، فإن دعوة التوبة تشمل الشرك وما دونه. لذلك لا يصح أن تحمل آية النساء على منع توبة من كان مشركًا ثم آمن ورجع إلى الله.^{٣٥}

بهذا يبقى للكلام عن التوبة معناه من غير أن نزيد عليه علمًا لا نملكه. نحث المذنب على الرجوع، ونبين له خطر الإصرار، ولا نقرر مصير فرد لم يخبرنا الوحي بمصيره. وبين الخوف من الذنب والجزم بعذاب صاحبه فرق، كما أن بين رجاء المغفرة والشهادة لإنسان بأنها وقعت له فرقًا.

وقد يحاول المرء أن يجعل هذه السعة سببًا للتأجيل: ما دامت المغفرة ممكنة، فلماذا أغير ما أنا عليه؟ لكن مشيئة الله ليست وعدًا شخصيًا تمنحه لنفسك، والتوبة التي أُمِرتَ بها لا تسقط بسبب ما ترجوه. أنت تعلم ما يلزمك الآن، ولا تعلم ما يختتم لك به. فاعمل بما تعلم، ودع الحكم على السرائر والمصائر إلى من يعلمها.

٣٥ النساء: ٤٨ تفسير الطبري، وابن كثير، والسعدي.

ولا تسقط بهذه الآية حقوق الناس التي في ذمتك، ولا يصير احتمال المغفرة عذرًا لإبقاء أذى تستطيع قطعه. سنعود إلى الحقوق في موضعها؛ والمقصود هنا ضبط الرجاء: ألا يضيق عن سعة النص، وألا يتجاوزها إلى ضمان تصنعه لنفسك.

ماذا تعني حين تقول: تبت؟

تحمل هذه الكلمة ندمًا والتزامًا: أن تقلع عن المعصية، وتندم على فعلها، وتعزم على ألا تعود إليها. تتصل هذه المعاني بما فعلته، وبما تصنعه الآن، وبما تقصده فيما يأتي.^{٣٦}

وقد يلتبس العزم بمعرفة المستقبل. يقول أحدنا: كيف أعزم وأنا أخشى أن أضعف؟ لكن الخوف من ضعف قادم ليس هو اتخاذ قرار بالعودة. ما سبق في حديث تكرار التوبة يبين أن وقوع ذنب جديد لا يجعل الرجوع مستحيلًا. أما أن تحتفظ في نفسك بخطة للمعصية المقبلة ثم تسمي ذلك عزمًا على تركها، فبين الأمرين فرق. المطلوب صدق القصد الحاضر، لا ادعاء العصمة من كل خطأ آتٍ.

^{٣٦} النووي، رياض الصالحين، باب التوبة، العرض الإلكتروني ج ١ ص ١٧: الإقلاع والندم والعزم، وزيادة التخلص من حق الآدمي بحسب نوعه.

وليس لازم الندم أن تحكي قصة ذنبك لكل من حولك حتى يصدقوا ألمك. لا يضع هذا الفصل مقداراً من الدموع أو مدة من الحزن مقياساً لقبول التوبة؛ النصوص التي نستند إليها لم تجعل ذلك مقياساً. قد تظهر مسؤوليتك في فعل قليل الكلام: أن توقف الأذى الذي كنت تصنعه، أو تترك كذباً كنت تحمي به صورتك، أو تبدأ أداء ما وجب عليك. لا نحكم بهذا على سريرتك؛ وإنما نعيد السؤال إلى ما يتطلبه رجوعك، بدل أن يبقى معلقاً بشدة الشعور وحدها.

إذن لا تنتظر حالاً مثالية حتى تبدأ. طريق الرجوع له معنى واضح، وصعوبته لا توجب تأجيله؛ وما خفي عليك حكمه تسأل عنه في موضعه.

استغفار يصحبه ترك الإصرار

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

في الآية ذكر لله وسؤال للمغفرة وترك للإصرار. يندم العبد على ما فعل، ويسأل ربه المغفرة، ولا يتخذ الاستغفار ستارًا للاستمرار في المعصية.^{٣٧}

فإذا قلت: أَسْتَغْفِرُ الله، فلا تجعل الكلمة بديلاً عن ترك ما تستغفر منه. طلب المغفرة دعاء إلى الله، والتوبة التي نتحدث عنها تتضمن رجوعاً عن الذنب. وحين نفصل بينهما في الشرح لا نريد أن نباعد بينهما في الحياة؛ نريد أن يصحب طلبك ما تدعو إليه من إصلاح.

وهنا خطأ آخر ينبغي تجنبه: أن يقول المذنب لنفسه إن نقص عمله يمنعه من الدعاء أصلاً. لا يدعوك هذا الكلام إلى إسكات لسانك عن الاستغفار، بل إلى وصل الاستغفار بالتوبة. لا تكتف بكلمة مع إصرار، ولا تتخذ تقصيرك حجة لترك السؤال والرجوع معاً. أنت محتاج إلى المغفرة وإلى إعانة الله على ما يلزمك.

وقد يجتمع في يومك ندم وعمل لم يتم بعد. فلا تختصر ذلك في حكم قاسٍ على نفسك، ولا في طمأنينة تعفيك من العمل.

^{٣٧} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم؛ والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير آل عمران:

عَيَّن الواجب التالي وابدأ به، واسأل عما جهلته. بهذه الوجهة لا يضيع معنى الاستغفار في محاكمة المشاعر، ولا يتحول إلى ستار لما لا تريد تغييره.

وللناس حقوق في قصتك

حين يكون الذنب أذى لغيرك، لا تكتمل رؤيتك له بالنظر إلى أملك أنت وحده. ثمة إنسان تضرر، وحق لا يختفي لأنك بدأت تشعر بالندم. عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ:

«من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه».^{٣٨}

التحلل طلب الخلاص من حق المظلوم على الوجه المشروع. ينقلك الحديث من ندم تشعر به إلى مسؤولية تؤديها، ويذكرك بأن ما تؤخره اليوم لا يضيع عند الله. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

٣٨ صحيح البخاري، كتاب المظالم، حديث ٢٤٤٩.

«أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار».^{٣٩}

هذه أعمال عبادة، ومعها حقوق ضيّعها صاحبها. فلا تحتج بطاعتك لتهميش مظلوم، ولا تجعل حسناتك عذرًا لمظلمة باقية. الوعيد يوقظك إلى الإصلاح، ولا يمنحك علمًا بمصير إنسان بعينه.

ولا تجعل قولك «لقد تبت» مطالبة للمتضرر بالتنازل عما له. التوبة لا تجعل مال غيرك ملكًا لك، ولا تجعل رغبتك في الراحة عوضًا عن حق من آذيته. ردّ الحق أو التحلل منه على الوجه المشروع جزء من مسؤوليتك.^{٤٠}

٣٩ صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، حديث ٢٥٨١.

٤٠ النووي، رياض الصالحين، باب التوبة، العرض الإلكتروني ج ١ ص ١٧: الإقلاع والندم والعزم، وزيادة التخلص من حق الآدمي بحسب نوعه.

وتختلف المظالم في طريقة معالجتها: رد المال غير معالجة أذى اللسان أو البدن. وفي بيان تفاصيل المظلمة عند طلب العفو تفصيل وخلاف؛ فلا يكشف المرء كل شيء بلا نظر إلى حكمه وأثره، ولا يجعل الكتمان طريقاً لإسقاط الحق.^{٤١}

أبدأ برد الممكن، ولا تجعل العجز اسماً للتأجيل

قد يقرأ صاحب المظلمة هذا الكلام فيرى أمامه تاريخاً طويلاً لا خطوة أولى. أموال لا يملكها الآن، وأصحاب حقوق انقطعت أخبارهم، وكلمات قيلت في مجالس قديمة. هنا نحتاج إلى التفريق بين العجز الحقيقي وبين تأجيل ما يمكن فعله. إن كان الحق المالي معلوماً وصاحبه معلوماً، فالأصل أن يصل إليه. ويمكن إيصاله بطريق مأمون من غير أن يعرف صاحبه اسم من رده. المقصود عودة الحق، لا تحويل التوبة إلى مشهد يحمي فيه المعتدي راحته على حساب صاحب المال.^{٤٢}

٤١ ابن حجر، فتح الباري، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحلها له هل يبين مظلمته، العرض الإلكتروني ج ٥ ص ١٢٢.

٤٢ ابن باز، ما يلزم من أراد رد الحقوق ولا يعرف أماكن أصحابها، جواب مباشر يجيز إيصال المال إلى صاحبه بطريق لا يعرف فيه اسم من رده.

أما إذا تعذر الوصول إلى صاحب المال بعد البحث عنه، فلا تتصرف فيه باجتهاد يريحك وحدك؛ اسأل عن حكمه في حالته. ومن الصور التي أفتى فيها أهل العلم التصديق بالمال عن صاحبه عند تعذر إيصاله، ولهذا الحكم شروطه وتبعاته.^{٤٣}

وإذا لم يملك الإنسان المال كاملاً اليوم، فالعجز الحالي لا يسقط الحق. يوقف الاستمرار في الأخذ، ويثبت مقدار ما يعرفه، ويبدأ بما يقدر عليه، ويسأل عن الواجب فيما عجز عنه. الخطة التي لم تنفذ لا تبرئ الذمة، والعجز الذي يحتاج إلى زمن لا يغلق باب التوبة. بين الطرفين تقوم المسؤولية: صدق في الرجوع، وعمل بحسب القدرة، وحق يبقى حاضراً حتى يؤديه أو يعالج حكمه على الوجه المشروع.

وأذى العرض أدق من أن يحل بجملة واحدة. قد يحتاج إصلاحه إلى بيان أو اعتذار، وقد يكون كشف ما لم يبلغه سبباً لأذى جديد. فلا تختبر لنفسك ما يريحك قبل معرفة الواجب؛ اسأل من يحسن تنزيل الحكم على حالتك، وأوقف الأذى الذي تعلمه.^{٤٤}

٤٣ ابن باز، حكم التصديق بالمال المسروق الذي لا يعلم مكان صاحبه، جواب خاص بمن جهل مكان صاحبة المال، بعد تعذر الإيصال.

هكذا يتسع رجوعك لما هو أبعد من صورتك عن نفسك. تعرف ربك فتسأله المغفرة، وتعرف مسؤوليتك فلا تنساها حين تدعوه. قد يكون الإصلاح شاقاً، وقد لا يستجيب الناس لك كما تتمنى. وليس رجوع العلاقة إلى ما كانت عليه نتيجة يملكها المعتذر أو يعده بها هذا الكتاب؛ الذي يلزمه أن يكف الأذى، ويرد الحق بحسب حكمه، ويقصد الصواب من غير ضغط جديد على من تضرر.

لا تجعل ذنبك هويتك الأخيرة

بعد أن تبدأ الرجوع قد يبقى الماضي حاضراً في تعريفك لنفسك. كلما هممت بطاعة قال لك صوت داخلي: أنت صاحب ذلك الذنب؛ كأن ما وقع صار اسماً لا يزول، لا فعلاً تتوب منه. هنا لا تحتاج إلى إنكار الماضي، بل إلى ألا تجعل الاعتراف به حكماً أبدياً على الطريق الآتي.

قبل آية التوبة في سورة الفرقان ذكرت جرائم عظيمة، ثم جاء الاستثناء: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، ثم قال

٤٤ النووي، رياض الصالحين، باب التوبة؛ وابن حجر، فتح الباري، شرح البخاري ٢٤٤٩؛ وابن باز، شرح حديث المظالم، سؤال «كيف يكون التحلل من العرض؟».

سبحانه: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾. [الفرقان: ٧٠-٧١]. لم تقف الآيتان عند مغادرة الذنب؛ ذكرت الإيمان والعمل الصالح والرجوع إلى الله.^{٤٥}

التوبة انتقال من المعصية إلى الطاعة، ووعد التبديل يفتح رجاءً واسعاً للتائبين. وقد اختلف الشرح في تفصيل هذا التبديل؛ لكن الآية واضحة في جمعها بين التوبة والإيمان والعمل الصالح. للتائب حياة حاضرة يصلحها، فلا يبقى متفرجاً على صورته القديمة.^{٤٦}

العمل الصالح ليس ثمناً تشتري به مغفرة الله، ولا محوًا تلقائيًا لحقوق الناس. معناه هنا أن الرجوع يمتد في يومك: صلاة تحفظها، وذنب تقطع أسبابه، وحق تؤديه، وخير تبدأه. ابدأ وأنت تتذكر حاجتك إلى المغفرة؛ فانتظار نسيان الماضي يؤخر العمل الذي يصلحه.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ:

«لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه،

٤٥ الفرقان: ٧٠-٧١؛ الطبري في ٧٠ و٧١، وابن كثير في ٧٠ و٧١، والسعدي في ٧٠ و٧١.

٤٦ الفرقان: ٧٠-٧١؛ الطبري في ٧٠ و٧١، وابن كثير في ٧٠ و٧١، والسعدي في ٧٠ و٧١.

فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح».^{٤٧}

الفلاة أرض واسعة خالية، والخطام ما تقاد به الراحلة. تأمل فرح من عاد إليه طعامه وشرابه بعد اليأس. أخبر النبي ﷺ أن الله أشد فرحًا بتوبة عبده، على ما يليق بالله من غير مماثلة لخلقه. فكيف تجعل رجوعك إليه مكروهًا مردودًا في تصورك قبل أن تبدأ؟

تب إلى الله، وأصلح ما استطعت، وداوم على العمل الصالح، واسأله الثبات. هذه البشارة تعينك على الرجوع، ولا تغنيك عن شروطه وتبعاته.

حين يعود تذكّر الذنب، اسأله عن وظيفته. إن ذكرك بالتواضع والاستغفار وإصلاح ما بقي، فقد قادك إلى عمل. وإن حاول أن يقنعك بأن الطاعة لم تعد تليق بك، فردّه إلى الآيتين: التائب يعمل صالحًا، ويتوب إلى الله متائبًا. دع صورتك الجديدة

٤٧ صحيح مسلم، كتاب التوبة، حديث ٢٧٤٧.

تتكون من السير في الطريق الذي فتحه الله، لا من لقب تمنحه لنفسك.

ارج، ثم انظر ماذا قدمت

قد يتحول الرجاء في ذهن الإنسان إلى شعور يبحث عنه قبل أن يعمل. فإذا وجده اطمأن، وإذا غاب ظن أن الطريق أغلق. لكن القرآن يعرض الرجاء في موضع آخر وهو يصحب حركة ثقيلة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].^{٤٨} هؤلاء لم يجعلوا عملهم سندًا للاستغناء عن الرحمة، ولم يجعلوا حاجتهم إلى الرحمة عذرًا عن العمل.

اجتمع لهم العمل ورجاء الرحمة. لم تحملهم الطاعة على الاستغناء عن فضل الله، ولم تحملهم حاجتهم إليه على القعود عن طاعته. وهذا ما تحتاجه وأنت تبدأ الإصلاح: سعي فيما أمرك به، ورجاء لا يعتمد على عملك وحده.^{٤٩}

٤٨ البقرة: ٢١٨؛ الطبري، وابن كثير، والسعدي.

٤٩ البقرة: ٢١٨؛ الطبري، وابن كثير، والسعدي.

لكن كيف تعرف ما قدمت فعلاً؟ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. [الحشر: ١٨]. انظر فيما قدمت ليوم القيامة: خير تحافظ عليه، أو تقصير تتداركه، أو ذنب تتوب منه. واستعن بالله على تصحيح ما ظهر لك.^{٥٠}

المحاسبة بهذا المعنى ليست إعادة محاكمة الماضي كل ليلة من غير نهاية. إنها نظر ينتج عنه اتجاه: خطأ يترك، وحق يُرد، وواجب يُستكمل، وطاعة تُحفظ. وقد يكون أهم ما تكشفه أنك بدأت تعتمد على انطباعك عن نفسك: تارة ترى أنك هلكت فلا تعمل، وتارة ترى أنك أحسنت فتأمن. الآية تعيدك من الانطباع إلى ما قدمت فعلاً، ثم تذكرك بأن الله خبير بما تعمل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ:

«لن ينجي أحداً منكم عمله». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة، سدّدوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا».^{٥١}

٥٠ الحشر: ١٨؛ الطبري، وابن كثير، والسعدي.

٥١ صحيح البخاري، كتاب الرقاق، حديث ٦٤٦٣.

السداد طلب الصواب، والمقاربة بذل الوسع فيما يقرب منه. والغدو أول النهار، والرواح آخره، والدلجة سير الليل؛ ضُرب ذلك مثلاً للعمل برفق ومداومة. ففي الخبر افتقار إلى رحمة الله، وأمر بالعمل الذي يستطيع صاحبه أن يستمر عليه.

العمل سبب للنجاة، والتوفيق إليه وقبوله من رحمة الله وفضله. فحين ترى نقصك أصلحه، وحين ترى خيراً وُفقت إليه فاحمد الله؛ وتبقى في الحالين محتاجاً إلى رحمته.^{٥٢}

لذلك لا تسأل نفسك فقط: هل أشعر برجاء؟ اسأل أيضاً: ماذا قدّمت؟ ما الذنب الذي أغلقت بابه؟ ما الواجب الذي حفظته؟ وما الحق الذي بدأت رده؟ ثم لا تجعل الإجابات شهادة غيبية لنفسك؛ هي علامات طريق تحتاج معها إلى الدعاء والمداومة. الرجاء الصادق يفتح عينيه على العمل، والمحاسبة الصادقة ترفع عينها إلى الرحمة.

٥٢ صحيح البخاري، كتاب الرقاق، حديث ٦٤٦٣.

الفصل الرابع

حين تعرف أن ربك غفور

قد يبدأ رجوعك إلى الله بخوف من ذنب، ثم تحتاج في أثناء الطريق إلى ما هو أوسع من تذكر ذلك الذنب. تحتاج أن تعرف ربك الذي ترجو مغفرته. فالإنسان الذي لا يرى إلا خطأه قد يكثر من الالتفات إلى الماضي، ويقلّ الالتفات إلى فضل الله؛ كأن المعرفة الوحيدة التي يحملها إلى دعائه هي معرفته بما فعل.

ولقد عرفك الله بنفسه، وأمرك أن تتلقى هذا الخبر عنه. قال تعالى:

{نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} ﴿٥٠﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} [الحجر: ٤٩-٥٠].^{٥٣}

في الآيتين خبران تقرؤهما معاً. تعرف بهما سعة المغفرة والرحمة، وتعرف شدة العذاب. لا تمحو إحداها الأخرى، ولا يحتاج قلبك إلى نسيان إحداها حتى ينتفع بالثانية. إنما

٥٣ الحجر: ٤٩-٥٠.

يحتاج إلى معرفة تصحح رجاءه وخوفه: يرجو ربًّا أخبر عن مغفرته، ويخاف عقوبة حذره منها، فيقبل عليه ويجتنب ما يسخطه.

والغفور هو الذي يغفر الذنوب ويسترها ويتجاوز عنها. والستر والتجاوز من معنى المغفرة، ولا يلزم منهما أن تختفي كل آثار الذنب الدنيوية في الحال. فالمغفرة التي تسألها أمر أعظم من أن تستطيع أنت نسيان الذنب، وأعظم من أن ينساه الناس. إنها مغفرة الله الذي يعلم ما كان منك، ولا يخفى عليه شيء من أمرك.^{٥٤}

معرفة تحملها إلى الدعاء

حين تقول: اللهم اغفر لي، فأنت لا تخبر الله بأمر غاب عنه، ولا تعرض عليه عذرًا يحتاج إلى أن يكتشفه. تقف بين يديه مفتقرًا إلى فضله، معترفًا بتقصيرك، راجيًا ما عرفك به من مغفرته. ولهذا يكون لاسم الله الغفور أثر في دعائك: يجمع القلب على سؤال من يملك المغفرة، بدل أن يظل موزعًا بين تبرئة النفس والحكم عليها بالهلاك.

٥٤ الطبري، جامع البيان؛ والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الحجر: ٤٩.

قد تكون حجتك على نفسك قوية؛ تتذكر أنك كنت تعرف،
وأنت حُذرت، وأنت وعدت من قبل ثم ضعفت. وهذه المعرفة
ينبغي أن تعينك على الصدق، لا أن تجعلك تتكلم عن رحمة
الله كأنك أحطت بها. أنت تعرف تقصيرك، لكنك لا تملك أن
تجعل منه حدًا لمغفرته. تقرأ الخبر الذي أخبرك به، وتأتية
بالتوبة، وتسأله أن يعينك على استقامة تحتاج إليها اليوم كما
احتجت إليها بالأمس.

قال الله تعالى:

{وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ} [طه: ٨٢].^{٥٥}

جاء وصف المغفرة هنا مقروناً بطريق يسلكه العبد: توبة،
وإيمان، وعمل صالح، واهتداء. ويدخل في الاهتداء لزوم هذا
الطريق والاستقامة عليه. فلا تقف الآية بالإنسان عند لحظة
الندم، ثم تترك بقية حياته خارج المعنى؛ بل توجهه إلى حياة
يتبع فيها الهدى، ويصلح عمله، ويثبت على ما عرف من الحق.
ومن هنا يظهر الفرق بين رجاء تعيش به، وكلمة تقولها لتؤجل
بها ما يلزمك. الرجاء يصحبك إلى الصلاة التي تتعلم إقامتها،

وإلى الحق الذي تحاول أدائه، وإلى العلم الذي يبين لك ما أشكل. وقد لا تحسن جميع ذلك من أول يوم، لكنك تعرف إلى أين تتجه، وممن تطلب العون، وعلى أي وعد تعتمد.

وعد المغفرة لا يتركك خارج الباب

قد يقف المستغفر عند نفسه طويلاً: كم أخطأ، وكم تأخر، وكيف سيبدأ بعد ذلك كله؟ يحتاج أن يصدق في معرفة تقصيره، لكنه يحتاج كذلك أن يسمع وعد الله، حتى لا تتحول معرفته بالذنب إلى حجاب عن معرفة الغفور الرحيم.

قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غُفُورًا رَحِيمًا﴾^{٥٦}

تبدأ الآية بوصف الإساءة وظلم النفس، ثم تفتح طريق الاستغفار. لا تشترط على المذنب تاريخاً خالياً من الذنوب حتى يدخل من هذا الطريق؛ فالكلام نفسه موجه إلى من وقع في السوء. يبين ابن كثير في صدر تفسيرها سعة قبول التوبة من الذنوب، ويبين السعدي أن الاستغفار التام يتضمن الإقرار

٥٦ النساء: ١١٠؛ تفسير ابن كثير وتفسير السعدي.

والندم والإقلاع والعزم على عدم العودة. فالوعد يفتح الرجاء،
وصدق الاستغفار يمنع تحويله إلى كلمة تقال مع اختيار البقاء
على المعصية.^{٥٧}

ومن هنا تفهم ما ينبغي أن تفعله حين تثقل عليك ذكرياتك. لا
تنكرها كي تستطيع الدعاء، ولا تجعلها دليلاً على أن الدعاء لم
يعد لك. تعترف بما تعلم من خطئك، وتسأل المغفرة، وتصلح
ما يلزم. وقد عرفت في الفصل السابق ما يتعلق بحقوق
الناس وشروط التوبة؛ فلا يحتاج هذا الموضوع إلى إعادة تلك
التفاصيل، وإنما يحتاج إلى وصلها بما تعرفه عن ربك الذي
ترجو قبوله.

وقد يخطئ بعض الناس فيجعل قبول التوبة مساوياً لسرعة
تغير أحوال الحياة. يظن أن زوال الضيق هو العلامة التي كان
ينتظرها ليصدق الوعد، أو أن بقاء مشكلة قديمة ينقض
رجاءه. الآية تتحدث عن المغفرة والرحمة لمن استغفر على
الوجه الذي بينه الشرع، ولا تعين لكل فرد شكلاً دنيوياً يختبر
به صدقها. وقد يبقى عليه عمل أو حق أو أثر يحتاج إلى
معالجة؛ وسيأتي بيان ذلك في هذا الفصل.

٥٧ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم؛ والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير النساء:

سعة لا تستغني عن التوحيد

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«قال الله: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي. يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي. يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة».^{٥٨}

يفتح الحديث ثلاثة أبواب متصلة: دعاء يصحبه رجاء، واستغفار مهما عظم الذنب، ولقاء لله على التوحيد. و«عنان السماء» ما ارتفع منها أو ظهر للناظر، و«قراب الأرض» ما يقارب ملأها؛ فالصورتان توسعان مقياس الرجاء حتى لا يجعل العبد كثرة ذنبه أكبر في قلبه من مغفرة ربه.^{٥٩}

٥٨ الترمذي، الجامع، كتاب الدعوات، حديث ٣٥٤٠، عن أنس بن مالك رضي الله عنه. صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم ٣٥٤٠، بواسطة الموسوعة الحديثية بالدرر السنية.

٥٩ ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الثاني والأربعين؛ الترمذي، الجامع، حديث ٣٥٤٠.

لكن السعة في الحديث ليست جملة مبتورة عن شرطها. لم يقل: لقيتني كيفما شئت؛ بل قال: «لا تشرك بي شيئاً». وليست «دعوتي ورجوتي» دعاء لسان مع قلب مقيم على الاستغناء عن الله، ولا «استغفرتني» كلمة تستعمل لحماية الإصرار. الرجاء هنا يوجهك إلى الله، والاستغفار سؤال للمغفرة، والتوحيد أصل اللقاء الذي ختم به الحديث.

ومن دقة هذا الميزان أن الخوف من الذنب لا يتحول إلى قنوط، وأن الرجاء في المغفرة لا يتحول إلى أمن من مكر الله. إذا رأيت ذنوبك كثيرة، فلا تقل: لا تصل إليها مغفرة؛ فهذا الحديث يرد عليك. وإذا هممت أن تتخذ الحديث إذناً بالبقاء فيما أنت فيه، فتذكر أن ألفاظه نفسها نقلتك من العدد إلى العمل: دعوت، ورجوت، واستغفرت، ولقيت الله غير مشرك به.

ولا يُنتزع الحديث من بقية أحكام التوبة. من كانت عنده مظلمة للناس لم تصبح أموالهم مباحة لأن المغفرة واسعة، ومن ضيّع واجباً لا يصح تضييعه بأن يردد عبارة الرجاء. حقوق العباد لها أبوابها، وشروط التوبة سبق بيانها، والحديث يبني في قلب المذنب قدرة على الرجوع لا حيلة على إسقاط المسؤولية.

ترجو ما وعد الله به وتسلك سببه، وتبقى مسؤولاً عما يلزمك من إصلاح. فقد يقبل الناس اعتذارك، وقد تحتاج آثار إساءتك إلى وقت وعمل؛ فلا تجعل موقفهم ميزاناً لسعة مغفرة ربك.

إن ثقل الماضي يدفع بعض الناس إلى أحد طرفين: أن يغلقوا باب الدعاء لأنهم لا يستحقون، أو أن يخففوا معنى الذنب حتى يستطيعوا احتمال صورته. والحديث لا يطلب واحداً منهما. يدعوك أن تأتي إلى الله وأنت تعرف خطأك، وأن تسأله مغفرة تعرف سعتها، وأن تحفظ للتوحيد مقامه. وتتصل هذه السعة بعلم الله بالعبد؛ يعرف ضعفه وما أخفاه، فلا يحتاج العبد أن يزين له حقيقة نفسه.

سعة المغفرة لا تزكي دعوى صاحبها

قال الله تعالى:

{الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي

بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم: ٣٢].^{٦٠}

تضع الآية سعة المغفرة بين حقيقتين تحفظان معناها: اجتناب كبائر الإثم والفواحش، وترك تزكية النفس. ليست السعة إذن عبارة تُستعمل لتصغير الذنب، كما أن الاجتناب ليس شهادة يمنحها الإنسان لنفسه. ربك أعلم بك منذ بدء خلقك، وأعلم بمن اتقى؛ وأنت مأمور أن تسلك طريق التقوى، لا أن تدّعي لنفسك منزلتها.

رَجَّح الطبري أن اللمم ما دون الكبائر والفواحش، وبَيَّن ابن كثير في صدر تفسيره أنه من صفائر الذنوب، مع نقلهما أقوالاً أخرى في معناه. وفسّر السعدي اللمم بالصغائر التي لا يصير عليها صاحبها، أو ما يقع منه على وجه الندرة والقلّة. ثم يردّ ختام الآية تزكية النفس إلى علم الله؛ وشرح السعدي النهي بأنه نهي عن إخبار الناس بطهارة النفس على وجه التمدح.^{٦١}

٦٠ سورة النجم، الآية ٣٢.

٦١ الطبري، جامع البيان، تفسير النجم: ٣٢؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الموضع نفسه؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، الموضع نفسه.

ولهذا لا تحتاج، وأنت ترجو المغفرة، إلى صناعة صورة نقية عن نفسك. يمكنك أن تقول: أخطأت، وأن تصدق في طلب العفو، وأن تعمل على اجتناب ما حرم الله. ولا تحتاج كذلك إلى جعل كل زلة هوية نهائية؛ فالآية عرّفتك بسعة مغفرة ربك في السياق نفسه الذي أمرك فيه بالاجتناب والتواضع.

وقد يسمع الإنسان ثناء الناس عليه فيظنه فصلًا نهائيًا في باطنه، أو يسمع لومهم فيظنه حكمًا لا رجعة بعده. ترد الآية الأمرين إلى علم الله: لا يغنيك مدحهم عن المحاسبة، ولا يجعل ذمهم باب الرحمة مغلقًا. انتفع بالنصيحة الصادقة، وصحح ما تعلم من تقصيرك، ولا تجعل صورتك في أعين الخلق مقياسًا وحيدًا لقربك أو بعدك. فعمل التقوى لا يحتاج إلى إعلان أنك من المتقين، والرجاء لا يحتاج إلى ادعاء أنك ممن غفر لهم.

ولا تجعل اللوم اسمًا مريحًا لما يصر عليه صاحبه أو يخطط له. يجمع السياق سعة المغفرة والنهي عن تزكية النفس، فيحفظ للرجاء موضعه وللمحاسبة ضرورتها.

ستر لا يلغي الاعتراف

عن صفوان بن محرز قال: بينما ابن عمر يطوف إذ عرض رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن، أو قال: يا ابن عمر، هل سمعت النبي ﷺ في النجوى؟ فقال: سمعت النبي ﷺ يقول:

«إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين»^{٦٢}.

في المشهد ستر ومغفرة، لكنهما لا يمران عبر إنكار الذنب. يُسأل العبد عنه فيقر: «نعم أي رب»، ثم يسمع خبر الستر والمغفرة. فمعرفة الله بالذنب كاملة، وستره لا يحوله إلى شيء لم يقع، ومغفرته فضل لا يحتاج إلى تزوير الحقيقة.

ويشرح ابن حجر أن الكنف هنا الستر، وأن هذا العرض يكون سرًّا بين الرب وعبد المؤمن، بخلاف فضيحة الكافر والمنافق

٦٢ صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، حديث ٢٤٤١، من طريق قتادة عن صفوان بن محرز عن ابن عمر رضي الله عنهما.

على رؤوس الأشهاد. ويظهر في شرح النووي للحديث نظير هذا المعنى: تقريب المؤمن وستره وتقديره ثم المغفرة. والحديث خبر عن مشهد من الآخرة، فلا يصح تحويل تفاصيله إلى طريقة نستكشف بها مصير فرد في الدنيا.^{٦٣}

إذا ستر الله على عبد، فليس لأحد أن يزعم أنه علم بهذا الخبر مغفرة شخص معين، ولا أن يحمل المذنب على نشر ما ستره الله بلا حاجة شرعية. وفي المقابل، لا يجعل الستر حقوق الأدميين مجهولة الحكم: ما وجب رده أو إصلاحه يُطلب حكمه ويؤدي بحسب الاستطاعة، وما احتيج إلى ذكره لاستفتاء أو شهادة أو حماية يذكر بقدرة. أما تفصيل الأسرار لمجرد تخفيف الضغط عن النفس فليس هو الاعتراف الذي يدل عليه الحديث.

وقد يظن الإنسان أن راحته لا تتم حتى يسمع من أحد حكمًا قاطعًا بأنه مغفور له، فينقل قصته بين المجالس بحثًا عن يقين لا يملكه البشر. هذا الحديث لا يعطي ذلك الحكم لأحد، لكنه يعرفك برب يستر ويغفر، ويعلم ما أخفيت وما أعلنت. يكفيك من الناس علم يبين الحكم، وعون أمين على الإصلاح،

٦٣ ابن حجر، فتح الباري، شرح حديث (٢٤٤١)؛ النووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم، شرح حديث النجوى.

وأداء لما تعلق بذمتك. أما المصير الغيبي فتفوضه إلى الله وأنت تعمل وترجو، بدل أن تجعل كشف المستور ثمنًا لطمأنينة مؤقتة.

ويمنحك هذا المعنى طريقًا أصدق في الدعاء كل يوم: لا تبرئ نفسك، ولا تياس منها. تعترف لربك بما يعلم، وتستتره عن فضول الناس، وتصلح ما يلزمك، وترجو سترًا ومغفرة أخبر بهما الوحي من غير أن تحوّلها إلى ضمان شخصي. ومن هنا يحسن أن تنتقل إلى دعاء يجمع الربوبية والعبودية والنعمة والذنب قبل سؤال المغفرة: سيد الاستغفار.

سيد الاستغفار: معرفة تسبق السؤال

عن شداد بن أوس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«سيد الاستغفار أن تقول اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». قال «ومن قالها من النهار موقنًا بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل

الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة».^{٦٤}

قبل أن ينتهي الدعاء إلى سؤال المغفرة، يمر بالقلب على معان يعرف بها من يسأل. ربوبية الله وألوهيته، وخلق العبد وعبوديته، والعهد والوعد، والافتقار والاستعاذة، والنعمة والذنب؛ تجتمع في كلام يسير لا يترك المستغفر محصوراً في رؤية خطئه وحده.

ويبين ابن الملقن في شرح الحديث ما في هذا الدعاء من الإقرار بالألوهية والعبودية، وبأن الله خالق والعبد مخلوق. ويشرح البغوي معنى العهد والوعد بالقيام بالإيمان والطاعة، ويذكر وجهاً آخر هو التمسك بأمر الله ورجاء ما وعد عليه من المثوبة. وهذه المعاني تجعل الاستغفار سؤال عبد يعرف ربه ويعرف موقعه بين يديه، لا طلباً منفصلاً عما يعتقده ويعمل به.^{٦٥}

٦٤ صحيح البخاري، كتاب الدعوات، حديث ٦٣٠٦.

٦٥ ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، باب أفضل الاستغفار، ج ٢٩ ص ١٨٦ وما بعدها بحسب ترقيم العرض الإلكتروني؛ والبغوي، شرح السنة، الباب نفسه، حديث ١٣٠٨، ج ٥ ص ٩٤-٩٥.

أنت ربي، وأنا عبدك

حين يبدأ الداعي بالإقرار بربه، فإنه لا يبحث عن طريق يخرج به من العبودية بعد خطئه. قد يخجل من نفسه، وقد يعرف أنه خالف، لكنه يرجع إلى من خلقه ورباه وأنعم عليه. اعترافه بالذنب لا يغير حقيقة افتقاره، بل يكشف حاجته إليها. فلا يملك لنفسه مغفرة يستغني بها عن الله، ولا يملك إنسان آخر أن يمنحه حكمًا غيبياً يمحو به ذنبه.

وقد يطلب الإنسان الطمأنينة من الناس، فلا يجدها إلا إذا برروا له فعله. يصبح همه أن يسمع أنه لم يخطئ أصلاً، حتى لو كان يعلم في نفسه خلاف ذلك. يعلمه هذا الدعاء طريقاً أصدق: أن يعترف ويستغفر، وأن يطلب العلم في حكم ما التبس عليه. ليس محتاجاً إلى قلب الخطأ صواباً كي يرجو الخير، ولا إلى رضا كل من عرف قصته كي يبدأ إصلاحها.

ومن عرف عبوديته لم يجعل رجوعه منّة على ربه. إنما هو المحتاج إلى الهداية والمغفرة والإعانة، والله غني عنه. فلا يقول في نفسه: قد استغفرت، فلماذا لم تأتني الدنيا كما أحب؟ الاستغفار عبادة ورجاء فيما أخبر الله به، وليس ثمناً يشترط به صاحبه نتيجة لم يرد بها وعد. ويستطيع مع ذلك

أن يسأل حاجاته المباحة، وأن يرجو فضل ربه فيها، دون خلط بين السؤال المشروع والاشتراط على الله.

عهد تؤديه بصدق الاستطاعة

يقر الداعي بأنه على عهد الله ووعد ما استطاع. وقد بين البغوي أن ذكر الاستطاعة يتضمن الاعتراف بالعجز والقصور عن الوفاء بكمال حق الله. فلا يحمل الإنسان هذا الإقرار على دعوى الكمال، ولا يجعله منفذاً لتسمية كل ما يكرهه عجزاً.^{٦٦}

قد تستطيع ترك كلمة مؤذية، لكنك لا تحب أن تسكت في الخصومة. وقد تقدر على رد حق، لكنك تؤثر منفعة بقائه في يدك. تسمية هذه الحال بصدق تعينك على التوبة، بينما يخفيها الادعاء بأن الأمر فوق القدرة. وفي المقابل، لا تكلف نفسك ما لا تستطيع لتبرهن على صدقك؛ تعلم حكم حالك وما يجب عليك فيها، وأد ما تعرفه من حق، واسأل الله العون على ما يشق.

ولا يلزم أن تكون خطتك للإصلاح واسعة حتى تكون صادقة. قد تبدأ بكف أذى حاضر، أو أداء حق معلوم، أو سؤال يفصل

٦٦ البغوي، شرح السنة، حديث ١٣٠٨، ج ٥ ص ٩٥ في العرض الإلكتروني المشار إليه.

لك مشتبهاً. العهد يوجهك إلى الطاعة في واقعك، وإقرارك بالاستطاعة يذكرك بأنك محتاج إلى الله وأنت تعمل. إذا ظهر عجز حقيقي طلبت الحكم الذي يناسبه، وإذا ظهر تقصير اخترت إصلاحه بدل حمايته بعبارة عامة.

نعمة تعترف بها، وذنوب لا تزينه

يفسر البغوي «أبوء لك بنعمتك» بالاعتراف بها، و«أبوء لك بذنبي» بالإقرار به. ويذكر ابن الملن معنى الإقرار واللزم في شرح اللفظ. هكذا يقف القلب أمام حقيقتين لا يحتاج إلى إخفاء واحدة منهما: إحسان الله إليه، وتقصيره في حقه.^{٦٧}

إذا رأيت الذنب وحده، فقد يغلب عليك أن حياتك كلها صارت ظلمة لا خير فيها ولا طريق أمامها. وإذا رأيت النعمة وحدها، فقد تغفل عن تقصير تحتاج إلى إصلاحه. يجمع الدعاء الاعترافين، فيحفظ للشكر موضعه وللتوبة موضعها. تسأل من أحسن إليك أن يغفر لك، ويزيدك علمك بإحسانه حياةً وافتقاراً.

٦٧ شرح السنة للبغوي ١٣٠٨، ج ٥ ص ٩٥، والتوضيح لابن الملن، باب أفضل الاستغفار؛ الموضوعان يشرحان «أبوء» بالإقرار واللزم.

وليس الاعتراف بالذنب هنا طلباً لأن تكشف للناس ما ستر الله، أو أن تحكي كل تفاصيل ماضيك لتثبت أنك نادم. أنت تدعو رباً يعلم سرّك. وما يحتاج إلى سؤال عالم أو رد حق يذكر منه ما يلزم لغرضه؛ فلا يخلط الاستغفار بمجلس اعتراف لا تنتهي فيه رواية العيوب. قد تستطيع أداء الحق وتصحيح الخطأ دون نشر أمور لا يحتاج الناس إلى معرفتها. وإذا اعتذرت إلى إنسان، فلا تجعل طول حديثك عن ألمك يغطي حقه في بيان ما أصابه. اعترف بالقدر الذي تعرفه من فعلك، وأصلح ما يلزم بحسب حكمه. أما الدعاء فباب افتقارك إلى الله، وليس وسيلة تحمل بها المتضرر على إعلان أن الأمر انتهى قبل أداء ما له. حين تتميز هذه المقامات يكون الاعتراف أصدق وأقرب إلى الإصلاح.

يقين بالخبر، لا اختبار للشعور

جاء الوعد في خاتمة الحديث مقترناً بقول الدعاء مع اليقين به. وشرح ابن الملّقن ذلك بالإخلاص من القلب والتصديق بالثواب. نصدق ما أخبر به النبي ﷺ، ونرجو أن نكون من أهله، ولا نفرغ الوعد من معناه. وفي الوقت نفسه، لا نحوله

إلى شهادة لشخص معين لمجرد أننا سمعنا لسانه يردد
الكلمات؛ فما في قلبه لا نحيط به.^{٦٨}

ولا تجعل اليقين مطلبًا غامضًا تعيد من أجله فحص إحساسك
حتى تعجز عن الدعاء. تعلم المعاني، وقلها مصدقًا بالخبر،
سائلًا المغفرة من قلبك. قد يكون الإنسان مهمومًا أو متعبًا،
فلا يشعر بالانشراح الذي شعر به في وقت آخر. درجة
الانفعال وحدها لا تكفي للحكم على حقيقة التصديق، كما لا
يغني الانفعال القوي عن صدق الرجوع.

ويصحبك هذا الدعاء في نهارك وليلك، فيجمع اعترافك
بالنعمة والذنب ورجاءك في المغفرة. تأمل معانيه حين تقوله؛
فأنت تجدد عهد العبودية، وتسأل من لا يغفر الذنوب إلا هو.

لا تنتظر سقطة جديدة حتى تستغفر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ
يقول:

٦٨ التوضيح لابن الملتن، الباب نفسه، عند «من قالها موقفًا بها»: فسرته بالإخلاص من
القلب والتصديق بالثواب.

«والله إنني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».^{٦٩}

كثرة الاستغفار ظاهرة في هذا الخبر النبوي. فهي تعلّم المسلم أن الاستغفار يصحبه في يومه، ولا يقتصر حضوره على ساعة يتذكر فيها ذنبًا محددًا. وقد نقل ابن حجر عن ابن بطال صلة اجتهاد الأنبياء في العبادة بمعرفتهم بالله ودوام شكرهم واعترافهم له بالتقصير. والمقصود هنا دوام الافتقار والاقتداء بالفعل الثابت، دون الخوض في تفصيل لم يحتجّه هذا الموضوع.^{٧٠}

قد تغفل عن شيء من حق الله، أو يخفى عليك نقص في عملك، أو تحسن ظاهر الفعل ويبقى قصدك محتاجًا إلى إصلاح. حين تستغفر لا تزعم أنك أحصيت ذلك كله، بل تسأل من يعلم ما لا تعلمه أن يغفر لك. فلا تحتاج إلى اختراع ذنب لكل استغفار، ولا إلى إعادة تفتيش يومك تفتيشًا لا ينتهي حتى تجد سببًا يسمح لك بالدعاء.

٦٩ صحيح البخاري، كتاب الدعوات، حديث ٦٣٠٧.

٧٠ ابن حجر، فتح الباري، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة، شرح ٦٣٠٧، ج ١١ ص ١٠٤-١٠٥ بحسب العرض الإلكتروني.

وفي الرواية إخبار بكثرة الاستغفار في اليوم، وليس فيها وعد بأن عدًّا تختاره سيمنحك نتيجة دنيوية محددة. احفظ اللفظ كما جاء، وتعلم ما ثبت من السنة في هذا الباب، ولا تبني نظامًا من عندك ثم تنسب فضله الخاص إلى الشرع. وفرق بين تنظيم شخصي يعينك على التذكر، وبين ادعاء أن ترتيبًا أو عدًّا لم يثبت له ثواب مخصوص.

وقد تحملك هذه المعرفة على تواضع أحوج ما تكون إليه بعد عمل أحسنت فيه. لا يغنيك نجاح ظاهر عن مغفرة الله، ولا يجعل ثناء الناس عملك خاليًا من النقص. احمد الله على ما يسر، واسأله القبول والمغفرة، ثم أد حق ما يأتي. بهذا يبقى الرجاء حيًّا بعد الطاعة كما يحيا عند التوبة، ويصير الاستغفار صلة تتجدد بين معرفتك بالغفور الرحيم وحاجتك الدائمة إليه.

حين يبقى أثر الذنب

قد يصلح الإنسان من أمره شيئًا، ثم يجد أثرًا قديمًا لم يزل: علاقة تحتاج وقتًا لتستعيد الثقة، أو مألًّا لا يستطيع رده دفعة واحدة، أو عادة يصعب عليه الانفكاك من أسبابها. وبقاء

هذه الآثار قد يدفعه إلى سؤال مؤلم: لو كنت قد رجعت حقًا، فلماذا لم ينته كل شيء؟

هذا السؤال يخلط بين أمور مختلفة. للتوبة حقيقتها، ولحقوق الناس أحكامها، وللأسباب في الحياة آثار قد تحتاج إلى معالجة. وليس في نصوص المغفرة أن جميع آثار الماضي الدنيوية تختفي في اللحظة التي يستغفر فيها العبد. فلا تجعل زوالها الفوري امتحانًا لصدق وعد الله، ولا تجعل بقاءها شهادة غيبية بأن توبتك رُدت. أصلح ما تستطيع إصلاحه، واستفت فيما يحتاج إلى حكم، وامض في العمل الصالح؛ فهذا هو الطريق الذي دلّك عليه النص.

وقد يبقى في النفس ندم يوقظها إلى الحذر. انتفع بما يدلك على إصلاح ممكن، ولا تجعل استعادة المشهد القديم عملك الوحيد. لقد ذكرت الآية العمل الصالح بعد التوبة؛ وفي حياتك أبواب من الخير تنتظر جهدك الحاضر. إقبالك عليها لا يعني أنك تستهين بما مضى، بل يعني أنك تأخذ أمر الله بالإصلاح مأخذ الجد.

العفو الذي تسأله

قد يكثر على لسانك طلب المغفرة، ثم تمر باسم الله العفو كأنه لفظ آخر للمعنى نفسه لا يحتاج إلى وقفة. وبين الاسمين قرب ظاهر؛ فالعبد يسأل بهما التجاوز عن ذنبه والوقاية من تبعته، وقد جمعهما القرآن في مواضع. ولا نحتاج كي ننتفع بهما إلى بناء فواصل لغوية قاطعة لم يدل عليها النص الذي بين أيدينا. يكفي أن نقرأ كل اسم في سياقه، وأن نسأل الله بما سمي به نفسه.

قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾. [الشورى: ٢٥].^{٧١}

تجمع الآية قبول التوبة والعفو عن السيئات والعلم بالأعمال. يشرح الطبري العفو هنا بترك معاقبة التائب على السيئات التي تاب منها، ويذكر ابن كثير أن الله يعفو ويصفح ويستتر ويغفر مع علمه بما فعل العباد. ويصل السعدي بين قبول التوبة وصدق الإقلاع والندم والعزم. تتفق هذه المعاني في

٧١ الشورى: ٢٥؛ تفسير الطبري وابن كثير والسعدي.

الموضع الذي نحتاج إليه: العفو ليس مبنياً على خفاء الذنب، ولا على أن الله لم يعلم مقدار تقصيرك. أنت ترجع إلى رب يعلم، وهو الذي فتح باب التوبة ودعاك إليه.

لهذا لا يلزمك أن تخفف حقيقة ما فعلت حتى تستطيع أن تقول: «اعف عني». الاعتراف الصادق لا يضيق عفو الله، كما أن الرجاء في العفو لا يحول الخطأ إلى أمر هيّن. تقولها وأنت تعلم أنك محتاج إلى إصلاح ما استطعت، وأنت لا تملك لنفسك حكم القبول، لكنك تملك أن تمتثل الأمر بالرجوع وأن تسأل ربك من فضله.

وفي الآية حماية من نوعين من الوهم. الأول أن يظن الإنسان أن كثرة علم الله بعيوبه تجعله بعيداً عن العفو؛ وقد جاء ذكر العلم في السياق نفسه. والثاني أن يظن أن كلمة التوبة تكفي وإن اختار البقاء على ما هو فيه؛ وقد جاء قبول التوبة عن عباده، لا تزكية كل دعوى يرفعها اللسان. الرجاء هنا صادق لأنه يتعلق بخبر الله، والمسؤولية صادقة لأنها تتعلق بما طلبه من العبد.

وقد علّم النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها دعاءً يجمع الاسم والطلب. قالت:

«يا رسول الله، أرايت إن وافقت ليلة القدر ما أدعو؟ قال: تقولين: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني».^{٧٢}

لم يبدأ الدعاء بوصف حال السائلة، بل بالثناء على الله بما يليق بالمطلوب: إنك عفو. ثم جاء سؤال العفو صريحًا. يشرح المباركفوري «عفو» بمعنى كثير العفو. وهذا القدر يفتح لك بابًا واضحًا في الدعاء: تعرف من تسأل، وتذكر من اسمه ما يناسب حاجتك، ثم تطلب بلا التفاف.^{٧٣}

تقوله مصدقًا بالنص، محتاجًا إلى ربك، وتعمل بما عرفت من طريق الرجوع. تجمع فيه الثناء والافتقار والرجاء؛ فلا يمنعك تقصيرك من الدعاء، ولا يغني الدعاء عن التوبة وأداء الحقوق.

العفو لا يمحو حدودك

حين يسمع المذنب عن عفو الله قد يظن أنه مطالب بأن يعفو الناس عنه فورًا، أو أن قبول اعتذاره يعني عودة الثقة

٧٢ ابن ماجه، السنن، كتاب الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية، حديث ٣٨٥٠، عن عائشة رضي الله عنها، واللفظ له. صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، رقم ٣١١٩، بواسطة الموسوعة الحديثية بالدرر السنية.

٧٣ المباركفوري، تحفة الأحوذى، شرح حديث ٣٥١٣، في الموضع الإلكتروني: فسر «عفو» بكثير العفو.

والعلاقة إلى ما كانتا عليه. هذا خلط بين رجاء العبد من ربه وبين حقوق البشر وقراراتهم المشروعة. لك أن تطلب العفو من الله، وعليك أن تصلح ما أفسدت بحسب حكمه، وليس لك أن تجعل اسم الله العفو وسيلة ضغط على من تضرر منك.

وقد يكون المتضرر محتاجًا إلى مسافة أو حماية أو وقت. لا نعلم ما في قلبه، ولا نحدد له موعدًا يجب أن يعلن عنده أن الأثر انتهى. إذا كان عليك مال أديته، وإذا كان عليك حق تعلمت حكمه وسعيت فيه، وإذا لزمك كف أذى كففته. أما استعادة القرب فليست نتيجة يملكها المعتذر وحده، ولا علامة غيبية على قبول توبته أو ردها.

هذا الفرق يحفظ صدق الدعاء وصدق المسؤولية معًا. أنت لا تؤخر الرجوع إلى الله حتى يرضى عنك كل إنسان، ولا تستعمل الرجوع إلى الله لتسقط ما للناس. تمضي في الطريقين بما تستطيع: تتوب وتستغفر وتسال العفو، وتؤدي ما وجب عليك، من غير ادعاء أن كل أثر سيزول في وقت تختاره.

حين يكون العفو خلقًا منك

معرفة اسم الله العفو تفتح أيضًا بابًا في معاملتك لمن أساء إليك، لكن القرآن نفسه يعلمنا أن ندخله دون ظلم جديد للمظلوم. قال تعالى:

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ۝ إِن تَبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوه أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾. [النساء: ١٤٨-١٤٩].^{٧٤}

السياق مهم. سبقت الدعوة إلى العفو إباحة الجهر بالسوء لمن ظلم في حدود ما أذن به الشرع. ثم جاء الندب إلى العفو، وختم باسم الله العفو مع القدرة. يبين الطبري أن للمظلوم أن يجهر بالقول الذي أذن له به، وأن العفو صفح عما له من حق. ويربط ابن كثير والسعدي العفو بقدرة الله، لا بعجز لا يملك صاحبه معه خيارًا.

لذلك لا يصح أن يُنتزع قوله تعالى ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ ليقال للمظلوم: اسكت دائمًا، ولا تطلب حماية، ولا تذكر ظلمًا عند من يستطيع رفعه. الآية نفسها بدأت باستثناء المظلوم. والعفو

٧٤ النساء: ١٤٨-١٤٩؛ تفسير الطبري وابن كثير والسعدي.

فضيلة عظيمة، لكنه لا يعني إنكار الواقعة، ولا يلزم منه تمكين المعتدي من تكرارها، ولا يساوي دائماً إعادة العلاقة القديمة. وقد يحتاج تقدير ما يصلح في واقعة بعينها إلى علم بالحكم وبالضرر، لا إلى شعار يلقي على المتألم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال:

«ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».^{٧٥}

ذكر النووي في شرح قوله «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً» وجهين: أن يُعْظَم صاحب العفو في القلوب في الدنيا، وأن يكون له العز في الآخرة، وذكر احتمال اجتماعهما. وهذا شرح للوعد النبوي على وجهه، لكنه لا يمنحنا أن نصف لكل حالة صورة دنيوية محددة. قد يعفو إنسان ولا يشهد سريعاً تغير نظرة الناس إليه، ولا يصح أن نحمله تهمة ضعف اليقين لأن التجربة لم توافق الصورة التي تخيلها.

والعفو الذي يمدحه الحديث فعل يختاره صاحبه لله، لا كلمة تُنتزع منه تحت ضغط الجماعة. فإن اختاره مع القدرة على

٧٥ مسلم، الصحيح، حديث ٢٥٨٨؛ والنووي، المنهاج، باب استحباب العفو والتواضع، شرح الحديث نفسه.

حقه رجاء ما عند الله، لم يكن تنازله ذلة في ميزان الحديث. وإن احتاج إلى رفع ظلمه أو منع تكراره، فليس لأحد أن يجزم بأنه حُرْم فضل العفو؛ لكل واقعة حكمها وملابساتها، والكتاب هنا يبين المعنى ولا يفتي في نزاع بعينه.

هذه الحدود لا تضعف الحث على العفو، بل تحميه من أن يتحول إلى أداة لصالح المعتدي. حين تعفو، لا تنكر الحق الذي كان لك؛ أنت تتركه اختياراً في الموضع الذي ترى فيه وجه الخير. وحين لا تقدر على ذلك الآن، لا تكذب على نفسك ولا تجعل المرارة حكماً أبدياً على مصير من ظلمك. اطلب من الله أن يصلح قلبك وحالك، وخذ من الأسباب ما يحميك، واستفت فيما أشكل عليك.

تسأل الله العفو لأنك عبد مذنّب محتاج، وتتعلم من اسمه فضيلة العفو مع القدرة. فإذا كان الحق لغيرك، فاحفظ لصاحبه حق الاختيار، ولا تجعل حثك على الفضل ضغطاً عليه أو إعفاءً لنفسك من إنصافه.

أن تعرف المغفرة في علاقتك بالناس

هذه المعرفة تمنعك أيضاً من أن تحبس غيرك في أسوأ ما عرفت عنه. قد يكون لك حق ثابت عليه، وقد تحتاج إلى

الاحتياط في معاملته، وقد لا تستطيع أن تعود إلى العلاقة القديمة. لكن شيئًا من ذلك لا يمنحك علمًا بما بينه وبين الله، ولا يبيح أن تقطع عليه طريق التوبة بكلمة يأس.

اجمع بين العدل في الحقوق وحسن الأدب مع الغيب. لا تُسقط حقًا لمجرد أن صاحبه سمع موعظة عن العفو، ولا تحكم على إنسان بأن مغفرة الله لا تتناوله. إنما تتعامل مع الظاهر بما يوجبه الشرع، وتكل السرائر إلى الله. وفي هذا راحة من عبء لم يكلفك الله حمله: أن تكون أنت الذي يقرر النهاية الأخروية للناس.

معرفة الغفور تصحب عبادتك كل يوم؛ تحفظ رجاءك حين تقصر، وتمنعك من الإعجاب حين تحسن. وحاجتك إلى فضله مستمرة، فتسأله مغفرة تعينك على أن تكون أصدق فيما يأتي.

الفصل الخامس

الحكمة حين لا ترى تمام الأمر

ليس أصعب ما في بعض الأحداث أنها تؤلمنا، بل أننا لا نفهم لماذا جاءت على هذه الصورة. نستطيع أن نصف ما فقدناه، وأن نذكر ما بذلناه، وأن نقارن ما حدث بما كنا نتمناه. أما العاقبة الكاملة فلا نملكها. وقد يضيق الإنسان بهذا الفرق بين وضوح ألمه وخفاء ما وراءه، فيطلب تفسيرًا عاجلاً يمنحه بعض السكون.

والإيمان بحكمة الله يعينك في هذا الموضع، إذا بنيتَه على ما أخبر الله به، وحفظت معه حدود علمك. فأنت تؤمن بأن الله عليم حكيم، وتقر بأنك لا تعلم كل حكمة في كل واقعة. يمكنك أن تجمع هذين الأمرين من غير أن تؤلف للواقعة سببًا خفيًا، ومن غير أن تجعل عجزك عن التفسير حجة على نقص الحكمة.

من يملك العلم بالعاقبة؟

قال الله تعالى:

{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}. [البقرة: ٢١٦].^{٧٦}

وردت الآية في فرض القتال وما في ذلك من مشقة على النفوس. وهي تكشف قصور الميل العاجل عن الإحاطة بما ينفع الإنسان أو يضره؛ فقد يكره ما أمر به لما فيه من كلفة، مع ما فيه من الخير، ويحب ما يضره لما يجده فيه من لذة. ثم يختتم السياق بالتذكير بعلم الله وقصور علم العباد.

وحين تحمل هذا المعنى إلى حياتك، ينبغي أن تبقى أُميئًا معه. فإذا فاتك عمل كنت ترجوه، فلك أن تقول: لا أعلم عاقبة ما فاتني، وأسأل الله أن يختار لي الخير ويهديني إليه. أما أن تجزم بأن ذلك العمل كان سيدمر حياتك، أو بأن رفضك منه يضمن وظيفة أفضل، فهذه أخبار تحتاج إلى علم لا تملكه. وأحوال الدنيا لا تطرد فيها هذه القاعدة على كل محبوب ومكروه.^{٧٧}

٧٦ البقرة: ٢١٦؛ تفسير ابن كثير.

٧٧ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير البقرة: ٢١٦.

لست مضطراً إلى أن تعرف التاريخ البديل لحياتك حتى
تطمئن إلى ربك. لا تعلم ما الذي كان سيحدث لو حصلت على
ما فات، وقد لا تعلمه أبداً. يكفيك أن تعرف ما كُلفت به الآن:
أن تتبين الأسباب الظاهرة، وأن تصلح ما أخطأت فيه، وأن
تطلب الخير من بابه، وأن تدعو الله بعلمك المحدود مفتقراً
إلى علمه الكامل.

غاية معلومة وتفاصيل خفية

قال الله تعالى:

{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}. [الملك: ٢].^{٧٨}

هذه غاية أخبرنا الله بها: ابتلاء العباد ليظهر حسن عملهم.
وحسن العمل يتعلق بإخلاصه وصوابه، فلا يختزل في كثرته
أو في الصورة التي ينال بها إعجاب الناس. ثم تذكر الآية
عزته ومغفرته؛ فالعبد مسؤول عن عمله، مفتقر إلى ربه في
إحسانه وتقصيره.

٧٨ الملك: ٢؛ تفسير السعدي، وتفسير ابن كثير.

بهذا تعرف شيئًا ثابتًا عن موقعك في الحياة، ولو بقيت تفاصيل كثيرة مجهولة. أنت مطالب بإحسان العمل في الحال التي صرت إليها. في القدرة أعمال تناسب القدرة، وفي العجز أعمال يطيقها العاجز، وفي السعة واجبات، وفي الضيق واجبات. وقد لا تملك تغيير النتيجة الماضية، لكن أمامك في الحاضر قول تختاره، وحق تحفظه، وسبب مباح تبذله.

وليس في معرفة هذه الغاية إذن لنا أن نحدد لكل شخص لماذا أصابته مصيبتته. فلا نقول للمريض إن هذا المرض بعينه جاء لأنه قصر في أمر نعرفه، ولا نزعم أن خسارة إنسان كانت عقوبة على سر لا نعلمه. ننتفع بالغاية التي أخبر الله بها، ونتوقف عن تفسير السرائر والأقدار الخاصة بغير دليل. وما لا نعرفه لا يلزم أن نملاه بكلام.

لست مخلوقًا عبثًا

قال الله تعالى:

{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}.

[المؤمنون: ١١٥].^{٧٩}

٧٩ المؤمنون: ١١٥؛ تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، وتفسير السعدي.

تنفي الآية أن يكون خلق الإنسان لعبًا أو باطلاً، وترده إلى حقيقة الرجوع والجزاء. فالحياة ليست مساحة سائبة يأكل فيها المرء ويتمتع ثم ينتهي أمره بلا أمر ولا نهى ولا حساب. وما تجهله من تفاصيل الطريق لا يمحو الغاية التي بينها الله لك: أنت عبد راجع إلى ربه، ولعمرك وزن وإن لم تكتمل أمامك حكاية الأيام.

وهذا المعنى أوسع من نجاح خطة خاصة أو تعثرها. قد يتغير العمل الذي عرفت به نفسك، أو ينقطع مشروع بذلت فيه سنين، ويبقى في يومك صدق تؤديه، وأمانة تحفظها، وعبادة تحسنها، وأذى تكفّه. لا تتوقف قيمة حياتك على أن تمنحك الدنيا الدور الذي رسمته لنفسك؛ ولكنها أيضًا لا تتحول إلى دعوة لترك الأسباب أو إهمال الحقوق. الرجوع إلى الله يجعل للعمل مسؤولية، لا يجعله بلا أثر.

ولا تعيّن الآية العلة الخفية لكل ألم. إنها تخبرك أن الخلق ليس عبثًا وأن الرجوع حق، ولا تقول لك إنك أحطت بسبب الواقعة التي أصابتك. فاجمع بين يقينك بالغاية وصدقك في حد العلم: تعرف إلى من ترجع، وتعمل بما كلفت، ولا تنسب إلى الله تفسيرًا خاصًا لم يخبرك به.

الحزن لا ينقض العبودية

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين وكان ظئراً لإبراهيم عليه السلام، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان. فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: يا ابن عوف، إنها رحمة. ثم أتبعها بأخرى فقال ﷺ: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».^{٨٠}

جاءت الدموع في الخبر رحمة، وجاء الحزن مصرحاً به، وبقي اللسان محفوظاً بما يرضي الله. فلا يطلب الإيمان من المصاب أن ينكر المحبة أو أن يمثل على الناس سكوناً لا يجده. الذي يتعلمه من الحديث أن صدق العبودية يمكن أن يصحب قلباً حزيناً وعيناً دامعة.

٨٠ صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزونون»، حديث

وحين تواسي لا تجعل الحديث محكمة على مقدار بكاء إنسان أو مدة حزنه. ذكّره برفق أن الحزن لا يساوي سوء الظن، وأن عليه أن يحفظ قوله وفعله مما حرم الله، ثم اصغ لما يستطيع قوله وأعنه بما تقدر عليه. لا تعدّه بأن الحزن سيزول في وقت معين، ولا تجعل استمرار أثر الفقد دليلاً على ضعف يقينه.

وهكذا تمنعنا معرفة الحكمة من طلب خاتمة مصطنعة: نصدق أن للحياة غاية، ونقر بأن الفراق يؤلم، ونعمل بما يرضي الله داخل الحال التي لم نخترها. ليست الطمأنينة محوًا للحزن، بل أن يبقى القلب عارفاً بربه واللسان صادقاً معه وهو يعبر الطريق.

خير الصبر والشكر

عن صهيب رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ:

«عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».^{٨١}

٨١ صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، حديث ٢٩٩٩.

سمّى الحديث السراء سراء والضراء ضراء. ثم بيّن عمل المؤمن في كل منهما، وما يكون له من الخير بالشكر والصبر. فليس المطلوب أن يسمي المصاب خسارته مكسبًا دنيويًا، أو أن يتظاهر بأنه لا يشعر بالألم؛ وإنما أن يتلقى الحال بما يرضي الله. وفي هذا معنى يستطيع أن يتعلق به حتى إن لم ير في أفقه تعويضًا قريبًا.

الشكر يوجهك إلى المنعم وإلى حسن استعمال النعمة. والصبر يحفظك، في حال الضر، من أن تحملك المصيبة على قول أو فعل محرم. كلاهما عمل، وكلاهما يحتاج إلى عون الله. ومن ثم لا يقتصر حسن الظن على انتظار تبدل الظروف؛ فقد يستقيم للعبد عمل يحبه الله وهو لا يزال في الظروف التي يسأل الله رفعها.

وتأمل أن الحديث لا يخصص الخير للمؤمن في الضر وحده. قد تكثر أسباب الراحة، ثم تغيب عن صاحبها معرفة من أنعم بها عليه، فيفقد ما كان ينبغي أن توقظه فيه. كما قد يحضر الضيق، فيتجه صاحبه إلى ربه ويمسك نفسه عما حرم عليه. فالميزان الذي يعلمه الحديث أوسع من سؤال: هل حصلت اليوم على ما أريد؟ إنه يسألك عما صنعت بما وجدت.

الصبر لا يعطل معرفة الأسباب

حين تخطئ في تقدير أمر، فمعرفة حكمة الله لا تمنعك من الاعتراف بخطئك. ربما أهملت الاستشارة، أو اعتمدت خبراً لم تتحقق منه، أو حملت نفسك ما لا تطيق. هذه أسباب ظاهرة تستطيع فحصها، وقد يعينك فحصها على قرار أفضل. أما سر تقدير الله للواقعة على تمامها فليس هو الشيء نفسه الذي تبحثه حين تراجع قرارك.

وبهذا يهدأ تعارض متوهم بين التسليم والتعلم. تسلّم لله فيما مضى، وتتعلم للمستقبل مما أمكنك معرفته. تطلب علاج المرض، وتستعين بمن يحسن النظر في شأنك، وتحاول رفع الضرر، وأنت راجٍ لربك في نجاح المحاولة وفيما لا تبلغه قدرتك. لا تحتاج إلى اتهام الأسباب حتى تثبت إيمانك، ولا إلى جعل الأسباب مستقلة عن الله حتى تأخذ بها.

وقد تقف بعد البحث عند حد لا تجاوزه، فتبذل ما تقدر عليه وتبقى النتيجة خارج يدك. تدعو وتعمل، ورجاؤك متعلق بالله العليم الحكيم؛ فما غاب عن علمك لا يغيب عن علمه.

الفصل السادس

اللطيف الخبير

قد تعرف حاجتك ولا تحسن شرحها. تدعو بكلمات قليلة، ووراءها تفاصيل كثيرة: شيء تخاف أن يقع، وشيء وقع ولا تزال تحاول فهم أثره، وضعف لا يظهر لمن يراك في يومك المعتاد. وربما ظننت أن ما عجزت عن قوله سيبقى بعيداً عن أن يفهمه أحد. أما ربك فقد عرّفك بعلمه الذي لا يخفى عليه هذا كله.

قال الله تعالى:

{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}. [الملك: ١٤].^{٨٢}

الخالق يعلم خلقه، ويعلم من أحوالهم ما ظهر وما خفي. ومن معنى اللطيف إحاطة علمه بالدقائق والخفايا، ومعرفته بما في الصدور. فليس علمه بك مقصوراً على صورة تستطيع عرضها، أو لفظ تجيد اختياره. وهذا المعنى يصحبك حين تعبد وحين

٨٢ الملك: ١٤؛ تفسير السعدي، وتفسير ابن كثير.

تدعو: تعلم أن من تقف بين يديه يعلم أمرك قبل أن تبدأ الكلام.

قد يطمئنك ذلك وأنت عاجز عن ترتيب شكواك، وقد يوقظ حيائك وأنت تخفي ما لا ترضاه من نفسك. فالاسم الذي يفتح لك باب الأنس بعلم الله يحملك كذلك على الصدق. لا تحتاج عنده إلى تزيين حالك، ولا تستطيع أن تستر عنه ما تعلمه من نيتك. تأتيه بحقيقتك، وتسأله صلاحها.

لطف في العلم ولطف في الإحسان

قال الله تعالى:

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

[الشورى: ١٩].^{٨٣}

ذكر المفسرون في هذا الموضع علم الله بدقائق أحوال عباده، وإحسانه إليهم وإيصاله الخير إليهم من حيث لا يشعرون. وجاء الرزق في الآية، وجاءت القوة والعزة؛ فهو سبحانه يحسن ويرزق عن علم وقدره، وليس عطاؤه ناشئاً عن حاجة منه إلى من يعطيه.

^{٨٣} الشورى: ١٩؛ تفسير السعدي، وتفسير الطبري.

ومن لطفه ما يفتحه للعبد من أسباب الهداية: علم يعرف به الطريق، وتوفيق لعمل صالح، وصحبة تعينه على الطاعة. وهذه المعاني توسع نظرنا إلى النعمة؛ فقد ينشغل المرء بما زاد في ماله، ولا ينتبه إلى ما تعلّمه من دينه، أو ما تيسر له من عمل كان يجهله.^{٨٤}

ولا يقتضي ذلك أن تزعم العلم بسر كل تأخير أو منع. قد تتبين لك نعمة لم تكن تلتفت إليها، فتحمد الله على ما عرفت. وقد يبقى وجه الأمر خافيًا، فتسأله لطفه وتكل العلم إليه. وبين الحاليين فرق يحفظ صدق كلامك: تشكر نعمة تعرفها، وترجو خيرًا لا تعلم تفصيله، ولا تحول الرجاء إلى رواية جازمة عن الغيب.

ما أخبر به الوحي في خبر يوسف

قال الله تعالى في خبر يوسف عليه السلام:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ

٨٤ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الشوري: ١٩؛ أسباب الهداية والعبادات الاجتماعية والاقتداء في الخير.

أَخْرَجَنِي مِنَ السَّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَرْغَ
الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [يوسف: ١٠٠].^{٨٥}

في هذا الخبر يذكر يوسف عليه السلام إحسان ربه إليه،
ويشهد تمام تأويل رؤياه، ويختتم كلامه بوصف الله باللطف
والعلم والحكمة. لقد أخبرنا الوحي بهذه العاقبة، فنعرفها
بخبره، ونتعلم منها أن الله يوصل إحسانه بما يشاء من
الأسباب، ولو خفي على العبد من قبل كيف تنتهي الأمور.

وتبقى للقصة خصوصيتها. فلا تعد إنساناً بأن كل ما مر
بيوسف عليه السلام سيجري له، أو بأن كل سجن ينتهي إلى
سلطان، أو بأن كل خصومة تجتمع بعدها الأسرة على الصورة
التي يرغب فيها. هذا تحميل للنص وعداً لم يتضمنه. الذي
يبقى لك من المعرفة أن رب يوسف هو ربك، عليم حكيم
لطيف، فتسأله وتحسن الظن به، من غير أن تشتترط تكرار
تفاصيل الخبر في حياتك.

٨٥ السعدي، تيسير الكريم الرحمن؛ وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير يوسف:
١٠٠. كان سجود التحية جائزة في شريعتهم؛ أما في شريعتنا فلا يجوز السجود لغير
الله، كما بين ابن كثير.

وفي تذكره إحسان الله أدب تستطيع الانتفاع به في حدود ما تعرف. فقد يجتمع في تاريخك ألم باق ونعمة ظاهرة؛ تحفظ للألم حقيقته، وتشكر الله على النعمة. لا يلزمك كي تحمده أن تمحو ما أصابك من ذاكرتك، ولا أن تبرر اعتداء من اعتدى عليك. الاعتداء يُحكم عليه بحكمه، والنعمة يُحمد الله عليها، ولا يتوقف أحد الأمرين على إلغاء الآخر.

المعرفة التي لا تحتاج إلى قصة مثيرة

قد نميل إلى الأخبار التي يظهر فيها التحول سريعاً: نجاة في آخر لحظة، أو باب كبير فُتح بعد انقطاع الأسباب. وفي الأخبار الثابتة عبرة، لكن حاجتك إلى معرفة لطف الله لا ينبغي أن تتوقف على أن تقع لك حادثة تصلح أن تُروى. في الهداية إلى الحق، والتوفيق للعمل، والعلم بحاجتك، معانٍ ثابتة لا تحتاج إلى أن تحيط بها دهشة الناس حتى تكون عظيمة.

ولهذا لا تحتقر الخير الهادي الذي تعرفه في حياتك. أن تتبين خطأ ففتركه خير، وأن تتعلم ما تصح به عبادتك خير، وأن تُعان على أداء حق خير. اشكر الله على ما تيسر، واسأله أن

يزيدك هدى. ولا تجعل انشغالك بما لم يقع حجاباً يحول بينك وبين الاعتراف بما وقع فعلاً من إحسانه.

ومع ذلك قد تمر عليك أيام يعسر فيها أن ترى وجه النعمة فيما يؤلمك. لا تتكلف قصة لا تصدقها لتظهر للناس أنك مطمئن. يكفي أن تكون صادقاً في افتقارك: لا أفهم تمام ما يجري، وأرجو من ربي اللطيف الخبير أن يعينني ويهديني ويصلح أمري. الدعاء بهذا الرجاء أصدق من كلام جازم عن أسباب لم يخبرك الله بها.

إن معرفة اللطيف الخبير توسع ما تعرفه عن عناية الله بخلقه، وتضعك في الوقت نفسه عند حدك. يعرف هو ما لا تعرف، ويقدر على ما لا تقدر، وتحسن أنت عبادته بما علمت، وتسأله الخير فيما جهلت. وحين لا تجد للكلام بقية، لا يكون علمه بحالك قد نقص بنقص كلامك.

الفصل السابع

ربك لا يظلم أحداً

قد يثقل على الإنسان ظلم وقع عليه أكثر مما تثقل عليه خسارة المال أو الجهد. يشعر أن حقيقة ما حدث لم تُر، وأن من تسبب فيه استطاع أن يمضي وكأن شيئاً لم يكن. وربما حاول بيان حقه فلم يحسن الناس الاستماع، أو عرفوا بعض القصة وغاب عنهم بعضها. في مثل هذا الموضع يحتاج القلب إلى معرفة عدل الله؛ معرفة تسنده، وتحفظه في الوقت نفسه من أن يتحول ألمه إلى ظلم جديد.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكْ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. [النساء: ٤٠].^{٨٦}

تنفي الآية الظلم ولو بلغ من الصغر مثقال ذرة، وتذكر مضاعفة الحسنه وعظيم الأجر. فالعبد بين عدل لا يُنقصه حقه، وفضل لا يبلغه بمجرد تقديره لعمله. وما يضيع في نظر

^{٨٦} النساء: ٤٠؛ تفسير السعدي، وتفسير ابن كثير.

الناس، أو يصغر عندهم، لا يصير بذلك خارج علم الله وحسابه.

ولا يقتصر أثر هذا الخبر على المظلوم. يحتاجه أيضًا من يعمل خيرًا لا يراه أحد، ومن يجتهد ثم لا يجد ثناء، ومن يخشى أن تضيع التفاصيل الصغيرة في زحام الحياة. لا يطلب المؤمن بعمله أن يحيط الناس بما بذل؛ ربه يعلم، ويجازي بالعدل والفضل. وهذه المعرفة تعينه على الإخلاص، وتحفظه من تعليق قيمة طاعته على الاعتراف الاجتماعي بها.

نداء يجمع العدل والافتقار

عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا

ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».^{٨٧}

يبدأ الحديث بتحريم الظلم، ثم يذكر العباد بحاجتهم إلى الهداية والطعام والكسوة والمغفرة، ويأمرهم بالسؤال. ويبين غنى الله عن خلقه؛ لا تضره معصيتهم، ولا تزيد طاعتهم في ملكه شيئًا. ثم يختتم بإحصاء أعمالهم وتوفيتهم إياها. فالعدل الذي تتعلق به في شأنك هو العدل الذي ينبغي أن تتذكره في شأن من تحت يدك ومن تتعامل معهم.

٨٧ صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث ٢٥٧٧.

والمُخَيِّط هو الإبرة. وفي هذا المثل بيان عظيم لغنى الله؛ فليس عطاء الخلق مما يستنفد ما عنده. وتَسْأَلُ أنت ربًّا لا يضيق عطاؤه بكثرة السائلين. فلا تقيس جوده على موارد البشر المحدودة، ولا تظن أن حاجة غيرك تزاحم حاجتك عنده كما تتزاحم الحاجات على قدرة الإنسان المحدودة.^{٨٨}

هذا الحديث يربي قلبًا يسأل ويعمل. يسأل الهداية ولا يغتر بما عنده، ويطلب المغفرة ولا يدفع عن نفسه تبعة الذنب، ويتذكر عمله ولا يرى نفسه مستغنيًا عن فضل الله. ومن هنا يأتي حمد الله على الخير؛ فإن توفيقك إليه نعمة تستحق الحمد، وليس سببًا لأن تتعالى على من لا يزال يحتاج إلى نصحك أو عونك.

لا تجعل الحديث لوًّا للمصاب

خاتمة الحديث في إحصاء الأعمال وتوفيتها. فلا يجوز أن تأخذ منها حكمًا بأن كل من أصابه مرض أو فقد في الدنيا قد جنى على نفسه بذلك، أو أن كل متألم يستحق أن يُلام. هذا

٨٨ المُخَيِّط: الإبرة. النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، باب تحريم الظلم، شرح حديث ٢٥٧٧.

انتقال من الخبر عن الأعمال وجزائها إلى دعوى في مصائب
أشخاص بأعيانهم، ولم يعطك الحديث علمًا بأسبابها الخفية.
وقد يكون الإنسان مظلومًا، فلا يليق أن تضيف إلى مظلمته
تهمة لا بينة عليها. تقف معه فيما ظهر من حقه، وتواسيه،
وتعينه على ما تستطيع، وتدعه يستعين بالله من غير أن
تطلب منه الاعتراف بذنب تتخيله أنت سببًا لمصيبته.
ومعرفة عدل الله ينبغي أن تظهر في عدلك أنت في الحكم
على الناس.

كذلك لا تجعل رجاء الآخرة ذريعة لإسكات صاحب الحق في
الدنيا. يستطيع أن يسعى في حقه بطريق مشروع، وأن
يستعين بمن يرفع عنه الضرر، وهو مؤمن بأن الله لا يظلم
أحدًا. وليس واجبًا عليه أن يتخلى عن كل مطالبة حتى يثبت
حسن ظنه. المقصود أن يحفظه هذا الإيمان من اليأس ومن
الاعتداء، وأن يصحبه وهو يسعى فيما أبيض له.

حين لا يكتمل الفصل في الدنيا

قال الله تعالى:

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ
كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾.
[الأنبياء: ٤٧].^{٨٩}

تذكر الآية يوم القيامة؛ حيث لا تُظلم نفس شيئاً، ولا تضيع
الأعمال لصغرها. وهذا يضع نهاية أوسع من النهاية التي
يستطيع الإنسان أن يراها في عمره. فقد يموت قبل أن يسترد
بعض حقه، أو قبل أن يعرف الناس حقيقة ما جرى. وحين
يؤمن بالآخرة، لا يعود انقضاء عمره هو الحد الذي يقيس به
تمام العدل.

لا يعذك هذا بأنك ستشهد في الدنيا سقوط كل من ظلمك، ولا
يجعل مصائب الناس اللاحقة دليلاً لك على أنهم عوقبوا
بسببك. تلك أحكام على أقدار معينة تحتاج إلى دليل.
تستطيع أن تصدق وعد الله بالعدل من غير أن تتتبع أخبار
من أساء إليك لتصنع من كل مرض يصيبه شهادة لصالحك.
وفي المقابل، لا تجعل ما تراه من إهمال الظالم إدناً له أو
تزكية لعمله. قد يخفى على الناس ما اقترف، وقد تعجز

٨٩ الأنبياء: ٤٧؛ تفسير السعدي، وانظر جمع ابن كثير بينها وبين النساء: ٤٠ في تفسيره
للأخيرة.

وسائلهم عن إقامة الحجة عليه، لكن خفاء الأمر عليهم ليس خفاء على الله. الذي يحفظ قلبك هنا هو التصديق بما أخبر الله به عن حسابه، مع التزام حدودك في معرفة مصائر الأشخاص.

نصيبيك من العدل

وأنت تتأمل هذه المعاني، لا تكتف بأَن تضع نفسك دائماً في موضع صاحب الحق. ربما كنت مظلوماً في شأن، وظلمت غيرك في شأن آخر. وربما أحسنت إلى إنسان ثم جرحت إنساناً، أو أدركت ظلماً كبيراً ولم تنتبه إلى كلمة صغيرة قلتها في غيبة صاحبها. المعرفة التي تنفعك هي التي تفتح لك النظر في الجهتين.

ليس المطلوب أن تتهم نفسك بكل شيء، بل أن تعدل في النظر إلى ما تعرفه. إذا ثبت لك حق فاطلبه بما أباح الله، وإذا ثبت عليك حق فأدِّه، وإذا جهلت فتبين قبل الحكم. ولا تجعل ألمك عذراً مطلقاً لكل ما يصدر منك؛ فإن من تمام انتفاعك بمعرفة عدل الله أن تحب النجاة من الظلم كما تحب النجاة من أثره عليك.

ربك لا يظلم مثقال ذرة، ويضاعف الحسنة. يسند هذا الخبر المظلوم، ويوقظ الظالم، ويشجع العامل على الخير. فتعبد رباً حكمه عدل وفضله عظيم، وتسأله صلاح عملك ومغفرة تقصيرك، وأن تلقاه صادق القلب، قد كففت عن ظلم عباده.

ما الذي يحمله الإنسان إلى الحساب؟

تقدم في فصل التوبة حديث المفلس كاملاً: رجل يأتي بعبادات وقد حمل معها مظالم الناس، فيستوفي أصحاب الحقوق من حسناته. ونعود هنا إلى أثر هذا الخبر في معاملتنا اليومية، بعد بيان أصل التوبة ورد المظالم في موضعه. هذا الخبر يهز تصورنا ناقصاً عن الصلاح؛ تصوراً يعدد عبادات الإنسان ويترك أثره في الناس خارج الحساب. لا ينتقص الحديث من الصلاة والصيام والزكاة، بل يبين خطورة أن يحمل صاحبها مظالم لم يسوّها. أعماله التي يعتز بها لا تمنحه حصانة يعتدي من ورائها على غيره. وحين يعرف عدل الله، ينبغي أن يتسع نظره إلى ذلك كله.

قد يتذكر المرء من نفسه مواطن بذل أحسن فيها، ثم يجد صعوبة في الاعتراف بأنه ظلم في موطن آخر. يظن أن الاعتراف سيمحو كل خير فعله، فيدافع عن الإساءة دفاعاً عن

صورته الكاملة. لكن صدقه يقتضي أن يسمى كل عمل باسمه. لا يحتاج إلى إنكار خير مضى كي يقر بحق، ولا يبيح له الخير السابق أن يستهين بالأذى الحاضر.

ومن صور الخلط أن يجعل المرء إحساناً فعله لشخص حجة على أن هذا الشخص لا يحق له الشكوى منه بعد ذلك. أعانه مرة في حاجة، ثم صار يرى هذه المعونة رصيماً يستهلكه في الإهانة أو التحكم. أما صاحب الحق فلا تزول حقوقه لأنه قبل إحساناً. وإذا وقع خلاف، فالنظر يكون في الواقعة نفسها وفي حق كل طرف، لا في مطالبة أحدهما بالسكوت إلى الأبد وفاءً لجميل قديم.

وقد يخدعنا ظهور بعض العبادات واختفاء بعض المظالم. يرى الناس عملاً حسناً، ولا يرون من تأذى في بيت أو مجلس أو معاملة. لذلك لا يصلح مدحهم دليلاً ينفي به الإنسان عن نفسه ما يعلمه منها. كما لا يحق لنا أن نقلب الأمر فنتهم كل ظاهر خير بمظلمة خفية. الخبر يرهب مراقبة النفس وحفظ الحقوق، ولا يأذن بالتفتيش في سرائر الناس أو اختراع تهم لم تثبت.

أن تتذكر الطرف الغائب

حين يروي شخص خلافه يختار من الوقائع ما يستطيع تذكره وما يرى أهميته. وقد يقع في النقص من غير قصد، وقد يحذف ما يحرجه. إذا كنا نريد العدل، لم يكف أن يكون الراوي قريبًا منا أو محبوبًا عندنا. نرفق به ونسمع، ثم نميز بين مواساته وبين الجزم على غائب لم نسمع منه. يمكن أن نعترف بألمه من غير أن نصدق كل تفسير وضعه لدوافع غيره.

وهذا الأدب يلزم الإنسان في كلامه عن نفسه أيضًا. قد يقول: لم أقصد أذاه، ويظن أن الجملة كافية لإغلاق الحديث. حسن القصد الذي يعرفه من نفسه لا يمنعه من سؤال الطرف الآخر عما وقع عليه، ولا من إصلاح أثر تبين أنه سببه. وقد يكون بعض الخلاف خطأ في الفهم، فينفع البيان؛ وقد يكون حقًا ضاع، فلا يغني عنه طول شرح النية.

ولا يعني هذا أن كل دعوى صحيحة لمجرد أن صاحبها متألم. للحقوق بيئة وتفاصيل، وقد يحتاج النزاع إلى من يفصل فيه بعلم. المقصود ألا يحكم المرء لنفسه حكمًا نهائيًا قبل النظر، وألا يجعل حسن ظنه بالله وسيلة إلى حسن ظن غير مشروط بكل ما يصدر منه. الثقة بالله تعينه على احتمال انكشاف

خطئه وعلى إصلاحه، بدل أن تحوجه إلى إنكاره كلما خاف على صورته.

ومن أصعب المواضع كلمة أُلقيت على سبيل المزاح ثم بقي أثرها عند سامعها. قد لا يرى قائلها إلا اللحظة القصيرة التي نطق فيها، ويرى الآخر سياقًا أطول من التحقير تكررت فيه. لا نفصل في كل مثال بحكم واحد؛ لكننا نعرف أن التهوين الآلي بقولنا «مجرد مزاح» لا يقوم مقام النظر في المعنى والأثر. ومن رجا عدل الله أحب أن يعدل حين يكون هو الأقوى تفسيرًا للواقعة.

الفصل الثامن

يعلم حاجتك ويقدر على ما يعجزك

حين تستنفد ما في يدك من الأسباب، قد يضيق تصورك لما يمكن أن يحدث. ترى أن الطبيب بذل ما يعلم، وأن المال متاح قد نفذ، وأن الذين تعرفهم لا يستطيعون مساعدتك. وهذه حدود حقيقية في قدرة البشر، لكنها ليست حدًا لقدرة الله. من معرفة ربك أن تضع كل قدرة في موضعها؛ فلا تهمل ما تطبيقه، ولا تجعل عجزك خبرًا عن قدرته سبحانه.

قال الله تعالى:

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: ١٢]^{٩٠}

جمع ختام الآية بين كمال القدرة وإحاطة العلم. فهو سبحانه يعلم الأشياء كلها، ويقدر على كل شيء. وخلق السماوات والأرض، وما يتنزل بينهن من أمره، يدل على عظمته، ويبعث

٩٠ الطلاق: ١٢؛ تفسير السعدي.

على تعظيم شرعه. إنك حين تسأله لا تسأل من يحتاج أن يكتشف موضع حاجتك، ولا من يحول عجزه بينه وبين قضائها.

ما الذي تصححه هذه المعرفة؟

تصحح أولاً قياسك الفرج على ما تحيط به. ربما قلت: لا طريق؛ لأنك لم تجد طريقًا في حدود بحثك. الأدق أن تقول: لم أعرف إلى الآن طريقًا، وسأطلب ما أستطيع وأسأل الله العون. وبين العبارتين فرق؛ الأولى تقطع في أمر لم تحط به، والثانية تصف معرفتك بأمانة وتترك باب الرجاء مفتوحًا.

لكن القدرة لا تعني أن الله وعدك أن يفعل كل ما تريده لمجرد أنه قادر عليه. إنه عليم حكيم، ومشيئته لا تتبع مطالب الخلق. تعرف قدرته فترجوه، وتعرف حكمته فتكل إليه ما غاب عنك. وإذا دعوت بحاجتك فلا تستكثرها على قدرته، ولا تجعل حصولها بعينها مقياسًا لصدق إيمانك بتلك القدرة.

وتصحح هذه المعرفة أيضًا نظرك إلى الأعمال الصغيرة. قد يبذل الإنسان خيرًا لا يراه أحد، ثم يظن أن جهده قد ضاع لأنه لم يُذكر. وربما ترك محرمًا لا يعلم الناس أنه كان متاحًا له. علم الله محيط بالظاهر والخفي؛ فلا تتوقف قيمة العمل

عند قدرة الناس على ملاحظته. اجتهد أن يكون عملك صالحًا خالصًا، واترك افتقارك إلى أن يراه الجميع.

حين يكون علمك سببًا للتواضع

كلما اتسع علم الإنسان بشيء أدرك أن وراء ما علمه أشياء يجهلها. وهذا يربي فيه تواضعًا نافعًا: يسأل من يعلم، ويتبين قبل الحكم، ويفرق بين ما ثبت له وما يرجحه. لا يتعارض ذلك مع ثقته بالله؛ بل من أثر هذه الثقة أن يطلب العلم النافع وألا يستغني عنه بانطباع أو رغبة.

وقد تحسن الظن بإنسان فيغلب على ظنك صدقه، ثم تحتاج إلى التحقق من خبره لأن الأمر مهم. ليس هذا نقصًا لحسن الظن بالله؛ فالله أمرنا بعبادته على علم، ولم يجعل تصديق كل خبر حسنًا عبادة. وحين تستشير صاحب خبرة أو تطلب تفسيرًا لما أشكل، فأنت تستعمل ما أعطاك الله من قدرة على التعلم، وتعترف بأنك لا تستقل بمعرفة كل شيء.

ويظهر أثر العلم والقدرة في الدعاء ظهورًا واضحًا. تذكر ضعفك من غير احتقار لنفسك، وتذكر علمه من غير تكلف تفسير الغيب. تقول ما تحتاج إليه، وتطلب ما ينفعك، وتبقى مستعدًا لتصحيح طريقك إذا ظهر لك ما لم تكن تعرفه.

عبوديتك لله تظل قائمة في حال قدرتك على الفعل وفي حال عجزك عنه، ولكل حال ما يناسبها من العمل الممكن.

حين تختار ولا تحيط بالعاقبة

قد تعرف ما تريده، ولا تعرف أهو خير لك. ترى في فرصة عمل زيادة في المال، ولا تحيط بأثرها في دينك وبيتك. وتجد في انتقال إلى مكان جديد ما يجذبك، وتبقى عواقب لا تستطيع حسابها. هنا تصير معرفتك بعلم الله وقدرته دعاءً تتعبد به، لا فكرة تبقى بعيدة عن قرارك.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول:

«إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال عاجل أمري وآجله - فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال في

عاجل أمري وآجله - فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به - قال - ويسمي حاجته»^{٩١}.

يبدأ الدعاء من معرفتك بمن تسأل: له العلم المحيط والقدرة التامة والفضل العظيم. تعترف بحدك حين تقول إنك لا تعلم ولا تقدر، وتسأل ربك أن يختار لك ويعينك. هذا الاعتراف لا يهين ما وهبك من عقل، وإنما يمنعك أن تجعل علمك الجزئي حكمًا على كل عاقبة. تستطيع أن تجمع المعلومات، وتستشير، وتوازن بين المصالح، ثم تبقى محتاجًا إلى ما وراء حسابك من توفيقه.

ويضع الدعاء أمامك ميزانًا أوسع من الرغبة العاجلة: دينك ومعاشك وعاقبة أمرك. قد تنشغل بمنفعة ظاهرة، فتحتاج إلى تذكر ما تصنعه هذه المنفعة في سائر حياتك. المال الذي ترجوه جزء من المسألة، وكذلك أمانتك وواجباتك وصلتك بربك. وفي هذا الاتساع ما يعينك على السؤال الصادق: أطلب الخير حقًا، أم أبحث عما يوافق اختياري الأول مهما كان ثممه؟

٩١ البخاري، الصحيح، كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى، حديث ١١٦٦، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

ثم تسأل التقدير والتيسير والبركة. وصول الأمر إلى يدك لا يستوعب حاجتك كلها؛ أنت محتاج إلى خيره وإلى حسن الانتفاع به. وقد تحسن اختيار عمل ثم تسيء أداءه، أو تنال سعة ثم تقصر في حقها. فطلب البركة يبقي قلبك مفتقرًا إلى الله بعد الوصول، ويذكرك أن نجاح البداية لا يغني عن إحسان ما بعدها.

وفي الوجه الآخر من الدعاء تسأل أن يصرف الله عنك ما فيه الشر، وأن يصرفك عنه. انتبه إلى حاجة قلبك هنا؛ فقد يزول الأمر وتبقى أنت مشدودًا إليه، تستهلك حاضرك في تخيله. تسأل ربك أن يعينك على مفارقة ما يضرّك كما تسأله أن يدفعه عنك. وتختتم بطلب الخير حيث كان، ثم الرضا به؛ فلا تحصر الفضل في باب واحد لأنك أحببته.

وهذا يعيد حسن الظن إلى أصله. ترجوه لأنه عليم قدير كريم، وتطلب اختياره وأنت لا تحيط بالعاقبة. فإذا تغيرت خطتك، فاستقبل ما أمامك بما تستطيع من تعلم وعمل ودعاء، من غير أن تخترع تفسيرًا غيبياً لكل تفصيل. يكفيك أن تعرف من سألته، وأن تظل صادقًا في طلب الخير، مستعدًا لتصحيح اختيارك حين يظهر لك ما ينفعك.

الفصل التاسع

الغني الذي يرزق عباده

يحتاج الإنسان إلى أشياء كثيرة حتى ينجز أمراً واحداً. يحتاج إلى حياة وصحة وعقل ووقت، وإلى معرفة لم يصنعها وحده، وإلى أرض يعيش عليها وأسباب يجدها أمامه. وقد ينشغل بالجزء الذي بذله حتى ينسى هذا كله، فيحسب أن نجاحه قائم على نفسه وحدها. ثم تأتيه حاجة صغيرة لا يقدر على دفعها، فتوقظه إلى افتقاره القديم.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.
[فاطر: ١٥]^{٩٢}

هذا وصفنا جميعاً، في السعة والضيقة. الفقر إلى الله لا يبدأ حين يخلو حسابك، ولا ينتهي حين يكثر ما تملك. تحتاج إليه في وجودك وبقائك، وفي هدايتك إلى ما ينفعك، وفي قدرتك على الانتفاع بما أُعطيت. والله غني عن خلقه، محمود في

٩٢ فاطر: ١٥؛ تفسير السعدي.

أسمائه وصفاته وأفعاله. فإذا أطعته فأنت المحتاج إلى الطاعة، وإذا سألته فلا تثقل عليه كثرة حاجتك.

الرزاق ذو القوة المتين

للرزق حضور ثقيل في أيام الناس. حساب ينتظر السداد، وعمل يخشى صاحبه أن يفقده، وأسرة يحتاج القائم عليها إلى قوتها. وقد يسمع صاحب هذه الهموم كلامًا عن التوكل فلا يعرف أين يضعه بين مطالب يومه: أيطمئن فيترك السعي، أم يسعى فلا يجد للطمأنينة مكانًا؟

يعرّفنا القرآن بربنا بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. يبين السعدي عموم رزقه لخلقه وكمال قوته. فالاسم الذي يتعلق به القلب ليس وصفًا لرزق محدود نخشى نفاده، ولا لقدرة تعجز عن إيصال ما شاء الله إيصاله.^{٩٣}

وحين تعرف أن الله هو الرزاق، تأخذ حاجتك بصدق إلى ربك. لا يلزمك أن تدّعي الاستغناء عما تحتاج إليه، أو أن تسمي الخوف من الدين أمرًا يسيّرًا. تستطيع أن تسأل السعة وأنت

٩٣ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الذاريات: ٥٨.

تعلم أن السؤال افتقار، وأن تعمل وأنت تعلم أن قوتك وخبرتك والفرصة التي تجدها ليست مستقلة عن تدبيره. ولذلك لا يصح أن نجعل معرفة هذا الاسم طريقاً إلى التهاون بحقوق من نعول. من كان في يده عمل مباح يقدر عليه، فليس معنى ثقته بالله أن يتركه انتظاراً لمال يصل بلا سبب. ومن ضاق عليه طريق، فالبحث عن طريق آخر ومشاورة من يعرفه لا يناقضان الرجاء. الكلام عن الرزاق ينبغي أن يرد الإنسان إلى عبوديته، ومنها أن يفعل ما يستطيع فعله من الخير.

امشوا في مناكبها

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾. [الملك: ١٥]. يذكر السعدي طلب المكاسب في طرق الأرض، ويصرح ابن كثير بأن السعي في السبب لا ينافي التوكل. يجتمع في الآية عمل العبد ونسبة الرزق إلى الله، ثم التذكير بالرجوع إليه.^{٩٤}

٩٤ السعدي وابن كثير، تفسير الملك: ١٥.

وهذا الجمع يصلح خللاً قد يدخل على القلب من جهتين. فقد يظن المرء أن مهارته تكفيه عن سؤال الله، حتى إذا تعطلت الأسباب تزعزعت ثقته بكل شيء. وقد يتخذ آخر اسم التوكل ستاراً لترك ما يقدر عليه. أما الآية فتدعوه إلى الأرض ليمشي فيها، وتبقي قلبه عارفاً بصاحب الرزق، ثم تفتح أمامه أفق الحساب.

وذكر النشور يمنع السعي من أن يصير غاية منفصلة عن الحلال والحرام. لا يكفي أن يكون الطريق مربحاً ليكون صالحاً للسلوك. إذا علمت أنك راجع إلى الله، سألت عن الكسب كما تسأل عن مقداره، وعن حق غيرك كما تسأل عن حقك. وقد تكون الخطوة التي تحتاجها اليوم إصلاح عقد، أو رد مال، أو ترك خداع؛ أمثلة تتبدل، والمعنى الذي يجمعها أن طلب الرزق لا يخرجك من طاعة من تطلب رزقه.

ليس مطلوباً أن تختفي رهبة الغد قبل أن تعمل. قد تسعى والخوف حاضر، وتدعو وقلبك لم يسكن بعد. لا تجعل الهدوء النفسي شرطاً لقبول كل خطوة منك، ولا تجعل اضطرابك حكماً نهائياً على إيمانك. تعلّم المعنى الصحيح، ثم عد إليه كلما غلبتك الحسابات.

رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير

في خبر موسى عليه السلام جاء هذا الدعاء بعد سقيه
للمرأتين وتوليه إلى الظل: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ
فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. [القصص: ٢٤].
يبين السعدي ما في دعائه من إظهار الحاجة إلى الله، وأنه
يسأله بحاله وافتقاره إليه.^{٩٥} يجمع المشهد القرآني عملاً نافعاً
وحاجة باقية؛ فعل موسى عليه السلام الخير، ثم توجه إلى
ربه فقيراً إلى خيره.

في هذا الدعاء يرد موسى عليه السلام حاجته إلى ربه: ينادي
ربه، ويقر بفقره، ويسأل الخير الذي ينزله الله إليه. لا ادعاء
في الدعاء بأنه استغنى بعمل صالح فعله، ولا تحويل لذلك
العمل إلى مطالبة بعوض يحدده من عند نفسه.

وقد يحمل أحدنا حاجته على أنها عيب ينبغي إخفاؤه حتى
عن نفسه. يحاول أن يبدو مكتفياً، ثم يزداد قلقه كلما احتاج
إلى سؤال أو مساعدة. يعلمنا هذا الموضع أن الافتقار إلى الله
لا يحتاج إلى اعتذار. يمكنك أن تسأله وأنت لا تملك جواباً
كاملاً عن الغد، وألا تجعل حسن ترتيب كلماتك شرطاً لصدق

٩٥ القرآن، القصص: ٢٤؛ السعدي، تفسير الآية.

سؤالك. الحاجة التي تعجز عن شرح بعض تفاصيلها لا تخفى على من تدعوه.

ومن جهة أخرى، قد يظن صاحب الحاجة أن باب النفع للآخرين قد أغلق حتى يستغني تمامًا. ليس هذا لازمًا من حاله. ربما بقي قادرًا على كلمة تبين حقًا، أو عمل يسير لا يضيع به حق من يعول، أو مساعدة يعرف كيف يؤديها. لا نحمل المحتاج ما لا يطيق، ولا نجعل بذله شرطًا لمساعدته؛ وإنما ننبه إلى أن الإنسان أوسع من مقدار ما يفتقده، وأن عطاءه لا ينحصر دائمًا في المال.

ثم لا نحول هذا إلى صفقة خفية مع القدر: افعل خدمة بعينها يأتك بعدها عمل بعينه. مثل هذا الوعد ليس في الآية. الذي نتعلمه منها أن الإحسان والافتقار يجتمعان، وأن العبد يستطيع أن ينفع غيره وهو يسأل الله ما ينفعه. يبقى العمل عبادة يرجو بها الله، ويبقى الرزق فضلًا يسأله، من غير أن يرسم للإجابة مسارًا يلزم به كل قارئ.

حين تضيق الخطة ويتسع السؤال

قد يبدأ الإنسان طلب الرزق وفي ذهنه طريق واحد؛ مكان يعرفه، أو عمل ألفه، أو مهارة ظن أنها تكفيه. فإذا تعطل

الطريق شعر أن الطلب كله قد انتهى. هنا يحتاج إلى أمرين متصلين: أن يسأل الله من فضله، وأن يعيد النظر فيما يستطيع تعلمه وفعله. الدعاء لا يلزمه أن يصر على صورة واحدة من السعي، والمعرفة باسم الرزاق لا تجعل خطته الأولى معصومة من النقص.

ليس في هذا استهانة بصعوبة التغيير. من أمضى سنين في عمل قد لا يسهل عليه أن يبدأ تعلمًا جديدًا، ومن يعول غيره لا يستطيع أن يجرب كل احتمال كما لو كان وحده. لذلك ينبغي أن تكون مشورته صادقة مع ظروفه، وأن يميز بين خطوة يطيقها ومغامرة يلقي تبعثها على من لا يملكون القرار. يتوجه إلى الله برجائه، ثم يسأل أهل الخبرة عن حقيقة السبب، ولا يجعل حماسة الكلام بديلاً عن فحصه.

وقد يحتاج في أثناء ذلك إلى قبول عون مشروع. لا يصح أن نحول حديث التوكل إلى ضغط عليه ليمتنع عن كل مساعدة حتى يثبت أنه قوي. الاستعانة بمخلوق فيما يقدر عليه من الأسباب المعروفة لا تعني أن ذلك المخلوق صار مالكاً مستقلاً للرزق. فالناس يعين بعضهم بعضاً، ويتعلم بعضهم من بعض، ويبقى القلب عالماً بأن الأسباب كلها لا تستقل عن الله.

وإذا كنت أنت من يعين، فتذكر أن حاجته لا تجعل حياته ملغاً لك. لا تشتط عليه أن يكشف من خصوصياته ما لا تحتاجه المعونة، ولا تستخدم مساعدته لإلزامه بتعظيم رأيك في كل شيء. من الخير أن تصل إليه المساعدة ويحفظ معها قدره، وأن يعرف وجه ما يطلب منه بوضوح، من غير دين معنوي مبهم يظل يلاحقه كلما خالفك.

في هذه المواضع تصير معرفة الرزاق أدباً متبادلاً: المحتاج يسأل ولا يعتقد أن إنساناً واحداً يحتكر له أبواب الخير، والمعين يبذل ولا يتوهم أنه صاحب فضل مستقل عن ربه. ومع هذا يبقى شكر إحسان الناس وحفظ حقوقهم عملاً ظاهراً لا يلغيه اعتقاد القلب. لا يستقيم أن يتذرع أحد بكون الرزق من الله ليجحد جهد من ساعده، كما لا يستقيم أن يجعل المحسن نفسه مالغاً لمصير من أحسن إليه.

رزق تسأل عنه ومسؤولية تعرفها

من المفيد أن يميز المرء بين حاجته إلى الرزق وبين رغبته في صورة اجتماعية معينة. قد يحتاج فعلاً إلى زيادة دخله لوفاء حق، وقد يتعبه في وقت آخر أنه لا يظهر أمام الناس بالمظهر الذي يريد. لا نحكم على النيات من الخارج، لكن يمكن

لكل إنسان أن يسأل نفسه هذا السؤال بصدق؛ لأن الخلط قد يجعله يحمل همًا متجددًا لا ينتهي بوصول ما يكفيه.

ولا تعني القناعة أن يترك تحسين معيشته أو أن يرضى بظلم في أجره. يمكنه أن يطلب الأفضل وأن يفاوض على حقه وأن يتعلم مهارة أرفع، وهو في الوقت نفسه لا يحتقر نفسه أو أهله لأنهم لا يملكون ما عند الآخرين. لا نحتاج إلى تعريف السعي على أنه شره، ولا إلى تعريف الرضا على أنه امتناع عن التغيير. نحتاج إلى معرفة الحكم، وصدق المقصد، وعدل الطريق.

وقد يظهر فقر القلب إلى التقدير في مجالس يظل فيها صاحبه يحصي ما عنده أو ما فاته. لا يسأل عن خير يستطيع فعله إلا بعد أن يتأكد أنه سيلفت نظر غيره. معرفة الرزاق تعيده إلى سؤال أقرب: ما الذي أحتاج إليه حقًا، وما الذي يلزمني أدائه؟ يساعده ذلك على أن يتخذ قرارًا يمكنه شرحه لنفسه بصدق، بدل أن يبني يومه كله على مقارنة لا يملك نهايتها.

ومع كل هذه المراجعة لا نجعل ضبط النية وصفة تضمن وفرة المال. قد يصلح الإنسان قصده ويبقى محتاجًا، وقد يتعلم ويتعب ولا يبلغ ما أراد. الذي نطلبه أن يستقيم سعيه

واعتماده، وأن يستعين بمن يستطيع إعانتته، وأن يظل باب الدعاء والعمل مفتوحًا. فمعرفة بربه لا تقاس بما يستطيع عرضه في آخر الشهر، وإنما يظهر أثرها أيضًا في صدقه وهو يسعى، وفي أمانته حين تضيق الخيارات.

رزق لا يستقل عن رازقه

قال الله تعالى:

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾.
[الطلاق: ٣]^{٩٦}

تأتي هذه الآية بعد وعد المتقي بالمخرج في سياق أحكام الطلاق، ومعناها لا ينحصر في ذلك السياق. يرزق الله المتقي من وجه لا يحتسبه، وهو كافي من يتوكل عليه، نافذ الأمر، وقد جعل لكل شيء قدرًا. فيرجو العبد ما وعد الله به، ويلتزم التقوى وهو يطلب رزقه، ولا يفصل رجاءه عن الطريق الذي يسلكه.^{٩٧}

^{٩٦} الطلاق: ٣؛ تفسير السعدي.

^{٩٧} السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الطلاق: ٢-٣.

ولا تجعل التقوى طريقة تجارية تختبرها مدة ثم تحكم عليها بحسب زيادة الدخل. ليست الكفاية كشفًا بحساب مالي تختاره أنت، ولا تحدد الآية مقدارًا من المال لكل شخص أو موعدًا لثرائه. قد يفتح الله للإنسان بابًا لم يتوقعه، ويعرف من نعمة ربه ما يحمده عليه، لكن الوعد لا يبيح أن تُنشأ للناس توقعات رقمية لم يدل عليها.

خذ السبب المباح بجدية: تعلم ما تحتاجه مهنتك، وأدِّ ما التزمت به، وأحسن تقدير ما تنفق، واستعن بالله. فإذا قل رزقك فلا تحكم على نفسك بأنك مطرود من رحمته، وإذا كثر فلا تجعله شهادة باستقامتك في كل شيء. انظر في عملك بالميزان الذي تعرفه من الشرع؛ فالمال وحده لا يشرح لك منزلتك عند الله.

أن تعرف ما أُعطيت

قد تُحرم شيئًا تحبه، ويكون في حياتك خير تعرفه معرفة واضحة. لا يلزمك أن تفسر الحرمان بالغيب حتى تشكر الخير الموجود. تستطيع أن تقول: هذا الأمر يؤلمني، وقد أعانني الله على أداء واجبي اليوم، أو رزقني من وقف معي، أو

علمني ما أصلح به خطئي. كل معنى منها له موضعه، ولا
يبطل أحدها الآخر.

وحيث تتذكر هذه النعم، فليكن الشكر على ما تعلمه، لا على
قصص تؤلفها حول ما لا تعلم. لا تقل إن كل منع كان حماية
من كارثة معينة؛ قل إنك لا تعلم تمام الحكمة، وإنك تعرف
إحساناً قد وقع فتشكر الله عليه. ويمنحك هذا الصدق رجاء لا
يحتاج إلى مبالغة، وشكراً لا يلزمك معه إنكار حاجتك الباقية.

الفصل العاشر

قريب يجيب من دعاه

من أعظم ما تعرف به ربك أنه أمرك أن تدعوه. لا تحتاج إلى جاه عند الناس حتى تسأله، ولا إلى عبارة لا يعرفها إلا المتخصصون. تقول ما بك، وتسأله حاجتك المشروعة، وتتعلم من الأدعية النبوية ما يجمع لك الخير. وكلما عرفت افتقارك إليه وجدت للدعاء مكانًا في يومك، في الرخاء كما في الشدة.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]^{٩٨}

أخبر الله عن قربهِ وإجابته، وأمر عباده بالاستجابة له والإيمان به. فيجتمع في الدعاء سؤال العبد لربه وانقياده لأمره. وهذا القرب ثابت على الوجه اللائق بالله، لا يعني

٩٨ البقرة: ١٨٦؛ تفسير السعدي.

حلول الله في خلقه أو اختلاطه بهم. وهو سبحانه يسمع دعاءك ويعلم حالك، فلا تحتاج أن تتكلف لإسماعه ما تخفيه في صدرك.^{٩٩}

دعاء يعرف صاحبه من يسأل

قد يسبق لسألك في الدعاء تصوّر شديد الضيق: شيء واحد، من طريق واحد، في وقت واحد. لا حرج في أن تسأل حاجة معينة مباحة، وأن تلح في طلبها. لكن معرفتك بربك تمنعك من أن تجعلها كل الخير الممكن، أو أن تحكم على رحمته من نتيجة واحدة تنتظرها. تسأله بحاجتك الحقيقية، وتعلم أن علمه أوسع من تقديرك.

ولا تجعل هذا الكلام سبباً لفتور الدعاء. التفويض لا يحول الطلب إلى عبارة باردة، كأنك لا تريد شيئاً. لك أن ترغب وتسال وتبكي وتلح، وأنت مؤمن بأن الله لا يجهل ما يصلحك. حرارة السؤال وصدق الافتقار يجتمعان مع الأدب والتسليم، ولا يلزم أن يلغي أحدهما الآخر.

٩٩ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم؛ والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير البقرة:

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. [غافر: ٦٠]^{١٠٠}

الآية تصل الدعاء بالعبادة، وتحذر من الاستكبار. فمن ثمرات معرفتك بالله أن يهون عليك إظهار حاجتك له؛ لا تستغني بقدرتك القليلة عن الاستعانة، ولا يؤخرك خجل من كثرة ما تسأل. فقرك إليه مستمر، وغناه تام، ومن رحمته أن أرشدك إلى سؤاله.

حين يطول الانتظار

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال:

«لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: «يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجيب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء».^{١٠١}

١٠٠ غافر: ٦٠؛ تفسير السعدي.

١٠١ مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل، حديث ٢٧٣٥، عن أبي هريرة؛ والنووي، شرح صحيح مسلم، شرح الحديث نفسه.

ويشرح النووي الاستحسار هنا بالانقطاع، ويستخلص الحث على إدامة الدعاء.

يتجه البيان هنا إلى معنى محدد؛ فلا ينبغي أن نجعله اتهامًا لكل دمة أو لكل تعبير عن طول المعاناة. قد يقول المرء لمن ينصحه: دعوت منذ زمن، ثم يسأله أن يدعو له ويعينه على الثبات. هذا الكلام وحده لا يتيح لنا الحكم بأنه وقع في الاستعجال المذموم الوارد في الحديث. ننظر إلى المعنى والسياق، ونحفظ للناس حقهم في أن يصفوا المهم.

والدعاء بإثم أو قطيعة رحم يبين أن صدق الرغبة وحده لا يجعل كل مطلوب حسنًا. قد يلح الإنسان في أمر فيه عدوان، ثم يتخذ شدة تعلقه به دليلًا على استحقاقه. معرفة المجيب تربي الطلب نفسه: أسأل ما يصلح، وأراجع ما أطلبه، وأستعين بالله على ألا يقودني الأذى الذي وقع علي إلى ظلم غيري.

ولا نملك من تأخر أمر معين أن نحدد سبب التأخر في الغيب. لا نقول لكل داعٍ: حرمت لأنك أذنبت، ولا نجزم له بأن الشيء الذي طلبه سيأتيه غدًا مضاعفًا. نستطيع أن نذكره بالتوبة وآداب الدعاء؛ فكلنا محتاج إليها. أما تنزيل سبب بعينه على

واقعة بعينها فيحتاج إلى علم لا نملكه بمجرد مشاهدة النتيجة.

أني مسني الضر

في دعاء أيوب عليه السلام جمع القرآن بين وصف البلاء والثناء على الله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾. [الأنبياء: ٨٣-٨٤]. ويبين السعدي ما في هذا النداء من إظهار الحاجة إلى الله والتوسل إليه بذكر حال الداعي ورحمته سبحانه. ١٠٢ لم يمنع علم أيوب بربه أن يذكر ما أصابه، ولم يجعله ذكر الضر ينسى الرحمة التي يرجوها.

إنسان يتعلم من هذا الدعاء قد يجد فيه تصحيحاً لعبارة كانت تثقله: يجب أن أكون بخير كي يكون رجائي صادقاً. ليس الأمر كذلك. يمكنه أن يقول إنه متألم وأن يسأل العافية، وأن يكون في هذا السؤال متوجهاً إلى الله بحسن رجائه. إخفاء الألم عن كل من يستطيع أن يعين ليس شرطاً للتسليم،

١٠٢ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الأنبياء: ٨٣-٨٤.

كما أن كثرة وصفه لا تغني وحدها عن الطلب والعمل الذي ينفع.

والدعاء هنا لا يضع للرحمة تعريفاً مستمداً من قدرة الإنسان على الاحتمال. لا نقول لمن اشتد عليه الأمر: لو وثقت برحمة الله لما شعرت بهذا كله. هذا الحكم يتجاوز ما نعرفه عنه، وقد يمنعه من سؤال من يحسن مساعدته. الأرفق أن نعيّنه على أن يصف حاجته، وأن نذكره بما يعرفه من ربه، وأن نترك مساحة لصمته إذا لم يقدر على مزيد من الكلام.

ثم أخبر الله بما خص به أيوب من الإجابة وكشف الضر، وجعل خبره ذكرى للعابدين [الأنبياء: ٨٤]. نصدق الخبر، ونتعلم منه الرجوع إلى الله. لكننا لا نستخرج من تفاصيل إجابة نبي جدولاً زمنياً لإجابة كل مبتلى. الاقتداء بدعائه شيء، والجزم بأن كل من قال ألفاظه سيجري له نظير ما جرى له في وقت معلوم شيء آخر. الأول باب تعلم وعبادة، والثاني دعوى تحتاج إلى دليل لا تتضمنه الآية.

دعاء لا يحتاج إلى تكلف

قد يتردد الإنسان في الدعاء لأنه سمع أدعية طويلة مؤثرة، ثم وجد كلماته أبسط من أن تشبهها. وربما اشتغل بتزيين

العبارة حتى غاب عنه ما يريد أن يسأله. والأدعية الثابتة تعلمه ألفاظًا جامعة يطمئن إلى معناها؛ ثم يستطيع أن يسأل حاجته بكلام واضح صحيح، من غير أن يجعل البلاغة حاجزًا بينه وبين صدق الطلب.

ليس المقصود أن يزدري البيان الجميل أو أن يمتنع عن تعلم المأثور. إنما المقصود أن يكون اللفظ خادمًا للمعنى. إذا قال إنه ضعيف ويحتاج إلى عون، فلا يلزمه أن يصف من ضعفه ما لم يقع، ولا أن يستدعي دموعًا حتى يصدق مع نفسه. وقد يدعو في وقت يجد فيه حضورًا، ثم يدعو في وقت يجد فيه فتورًا؛ فيطلب أن يعينه الله على إصلاح قلبه بدل أن يترك الباب كله.

ومن الصدق أيضًا أن يراجع مطلوبه. ربما دعا على غيره وهو لم يعرف وجه الحق كاملاً، أو سأل أمرًا يترتب عليه ظلم لا يلتفت إليه. ليس عليه أن يدافع عن كل صيغة خرجت منه حين غضب. يستطيع أن يعود فيسأل الهدى والعدل، وأن يستغفر مما علم أنه أخطأ فيه. وقد سبق النهي عن الدعاء بإثم أو قطيعة رحم؛ فيبقى هذا الضابط مصاحبًا لشدة الرغبة، لا أمرًا نتذكره بعدما يزول غضبنا فقط.

وتحتاج اللغة التي نعلّم بها الدعاء إلى عناية مشابهة. حين نقول للمتألم: سل الله الخير، ينبغي ألا يسمع منا أن حاجته الصغيرة في نظرنا لا تستحق السؤال. ما يثقل يومه معلوم لله، وإن لم نستطع نحن تقدير ثقله. نساعد على حسن الطلب، ونوسع نظره إلى أبواب الخير، من غير أن نسلبه حقه في سؤال ما يحتاج إليه من أمر مباح.

ما يبقى بعد أن ترفع يديك

إذا انتهيت من الدعاء، فلا تجعل ما بقي من يومك انتظارًا خاليًا من العمل. أمامك أسباب مباحة، وحقوق تؤديها، ومعانٍ من العبادة لا تتوقف على حصول ما سألت. وقد تحتاج أن تتعلم حكمًا، أو تصلح كسبًا، أو تبادر إلى واجب أخّره. استجابتك لأمر الله جزء من صلتك به، وليست أمرًا خارج الدعاء.

وقد لا تشعر في كل مرة بالسكينة التي تنتظرها. لا تجعل مقدار انفعالك شهادة قبول أو رد. امض في دعائك المشروع، وأحسن عملك، واستعن بالله على حضور قلبك. يبقى الوعد الذي أخبر الله به حقًا، وتبقى حالتك الشعورية متقلبة لا تحيط بما عنده.

الفصل الحادي عشر

وعده حق

تتعلق النفس بالوعد حين تثق بمن وعدها. وقد خُذِل الإنسان من قبل في بعض وعود الناس، فيحمل أثر تلك التجربة إلى كل انتظار جديد. أما خبره سبحانه فحق، لا يتطرق إليه كذب ولا جهل بالعاقبة. ومن تمام تعظيمك لله ألا تقيس وعده على وعود خلقه، وألا تنسب إليه في المقابل وعدًا لم يقله.

قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا^{١٠٣} وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾. [النساء: ١٢٢]^{١٠٣}

ذكرت الآية الإيمان والعمل الصالح، وذكرت دخول الجنة والخلود فيها، ثم أكدت صدق الوعد. فهذه نهاية عظيمة يُدعى العبد إلى السعي لها، أوسع من أن تختزل حياته في

١٠٣ النساء: ١٢٢؛ تفسير السعدي.

الراحة العاجلة. تتعلق بها همته، ويصبر لأجلها على مشقة الطاعة وترك المعصية، ويسأل الله فضله وتوفيقه.

ما أخبر به وما نتمناه

الوعد الثابت يُعرف من النص ومعناه وشروطه. أما تفاصيل الحياة التي نرجوها، كعمل بعينه أو شفاء في تاريخ نحدده، فتبقى مطالب ندعو بها ونبذل أسبابها. لا تتحول إلى وعد إلهي لأننا أحببناها كثيرًا، أو لأن أحدًا قال لنا كلامًا مطمئنًا عنها.

هذا الفرق لا يطفى الأمل؛ إنه يمنحه أصلًا يصح أن يعتمد عليه. تستند إلى مغفرة الله للتائب، وإلى عدله الذي لا يظلم، وإلى علمه وحكمته، وإلى ما وعد به أهل الإيمان والعمل الصالح. وأما ما لم تعلمه، فتسأل الله فيه الخير، بدل أن تحمل قلبك انتظارًا جازمًا لم يشهد له دليل.

وقد ترى في الدنيا من يستمتع بما حرّم الله، ومن يثبت على الطاعة مع ضيق العيش. لو جعلت متاع هذه الساعة هو الجزاء كله اختلط عليك الميزان. لكن وعد الآخرة يضع أمامك المدى الذي أخبر الله به، فلا تصبح سرعة حصول اللذة برهانًا

على صلاح الطريق، ولا يكون تأخر بعض ما تحب دليلاً على ضياع طاعتك.

العمل تحت نور الوعد

الوعد الوارد في الآية يجمع الإيمان والعمل. فلا يكفي أن يستعذب الإنسان ذكر الجزاء ثم يعزل يومه عنه. من رجا لقاء الله نظر إلى ما يقدمه بين يديه: في عبادته، وفي أمانته، وفي رجوعه إذا أخطأ. وقد تقدمت نصوص المغفرة لتمنع اليأس، ونصوص حقوق العباد لتمنع أن يلتهم الرجاء مسؤولية الإنسان.

لا يلزم من هذا أن يطمئن العبد إلى نفسه اطمئنان من ضمن سلامة قلبه وخاتمته. الثقة بصدق الوعد غير الشهادة للنفس باستيفاء شروطه. لذلك يسأل الثبات، ويستغفر من التقصير، ويرجو فضل الله. يجتمع في قلبه تصديق لا يتردد في خبر ربه، وافتقار لا يدعي به كمال عمله.

عمل يرجو الرحمة

سبق في فصل التوبة حديث السداد والمقاربة والافتقار إلى رحمة الله. يجمع هذا المعنى العمل والرجاء: تعمل على الوجه

الذي تعلمه، وتستعين بالله، وتسأله القبول. فالوعد يدعوك إلى الطاعة، والطاعة لا تجعلك مستغنياً عن فضل ربك.

في حياة الناس معاملات يعرفون فيها مقدار ما قدموا وما يستحقون في مقابله. وقد ينتقل بعض هذا التصور إلى القلب حين يتحدث عن عبادته؛ يصلي ويصوم ثم يتعامل مع ما يريد من الدنيا كأنه بدل مستحق عن هذه الأعمال. فإذا لم يصل البذل الذي تخيله، رأى أنه حرم حقه. ولا يعلم أنه نقل الطاعة من مقام العبودية إلى حساب أنشأ شروطه بنفسه.

الوعد الذي جاء في الوحي حق نؤمن به، وقد وعد الله المؤمنين العاملين الصالحات بما وعدهم. لكننا لم نُخبر أن كل عبادة نُؤديها تستبدل لنا بحادثة دنيوية نعينها. لا يملك العبد أن يضيف هذا الشرط ثم ينسب خيبته فيه إلى الوعد. يمكنه أن يسأل في دعائه ما يحب من مباح، وأن يرجو الخير، ويظل عمله لله أوسع من هذا المطلب الذي شغله.

ولعل هذا يعين من وجد في نفسه مرارة بعد إحسان أو عبادة: لقد فعلت الخير، فلماذا وقع لي ما أكره؟ أول ما يحتاج إليه أن يصدق في وصف ألمه، ثم أن يراجع الصلة التي افترضها بين الأمرين. لا يلزم من أداء الطاعة أن تُرفع عنه كل مشقة،

ولا من وقوع المشقة أن طاعته لم تنفع. يبقى لها حكمها ومعناها، وللحياة ابتلاؤها، وللجزاء تمامه الذي أخبر به الله.

رجاء يمتد إلى ما وراء يومك

إذا حضر في القلب وعد الآخرة، لم تعد الحياة العاجلة الموضوع الوحيد الذي ينتظر فيه ظهور كل معنى. يستطيع الإنسان أن يعمل خيرًا لا يرى كل ثمرته، وأن يترك ظلمًا لا يمنعه منه أحد، وأن يصبر على حق عرفه وإن لم يمنحه مكانة بين الناس. ليس عليه أن يخترع لكل ذلك مكافأة قريبة حتى يجد باعًا إلى العمل.

وفي هذا سعة للقلب حين تتعذر عليه نهاية مرضية لقصة مضت. بعض القصص يبقى فيها فقد، وبعض الحقوق لا يستوفيه أصحابها في الدنيا، وبعض الجهد لا يُعرف مقداره. الإيمان بالجزاء لا يمحو الألم من الذاكرة، لكنه يمنع الذاكرة من أن تصبح المحكمة الوحيدة على قيمة كل ما جرى. ما نراه في الأيام ليس تمام الحساب الذي أخبرنا الله به.

ومع ذلك لا يتحول رجاء الآخرة إلى احتقار للواجب العاجل. من علم أنه سيسأل عن عمله كان أولى بالصدق في شهادته، وحفظ ما أوّتمن عليه، وبذل ما يستطيع في إزالة أذى.

فالإيمان بالرجوع إلى الله يوسع المسؤولية، ولا يعفي منها. إذا استطاع إنصاف مظلوم، لم يكفه أن يقول إن الله سينصفه في الآخرة ثم يدعه وهو قادر على إعانتة بحق.

وحين يضعف حافظك لأن الناس لا يرون ما تفعل، اسأل عن وجه العمل نفسه. إن كان نافعاً مشروعاً، فاجعله في موضعه وأحسن أداءه، ولا تطلب من الثناء أن يمنحه كل معناه. وإن ظهر لك أنه كان خطأ أو أن غيره أنفع، فعدله. الرجاء في الثواب لا يجعل رأيك محصناً من النقد، ولا يحمل غيرك على أن يقر لك بصحة عمل لم يفهمه.

صدق الوعد وصدق الاستجابة

الوعد الصادق يدعو إلى استجابة صادقة. يقرأ المؤمن خبر الجنة فيشتاق، ثم ينظر إلى ما بين يديه من أمر ونهي؛ ويقرأ خبر المغفرة فيرجو، ثم يعرف الذنب الذي ينبغي أن يتوب منه. لا يلزمه أن ينتظر شعوراً قوياً في كل مرة ليعمل. قد يعمل والمعنى حاضر حضوراً هادئاً لا تصحبه الدموع، ويظل عمله محتاجاً إلى الإخلاص والاتباع والقبول.

ومن الصدق ألا يجعل الإنسان الوعد مادة للحديث عن الآخرين فقط. قد يحسن تذكيرهم ثم يغفل عن حق يضيع

منه، أو يكثر الكلام عن منزلة أهل الإيمان ثم يستغني عن محاسبة نفسه. لذلك تعيدنا القراءة الصحيحة إلى السؤال عما نعرفه من أمرنا، وتمنعنا من الشهادة على بواطن غيرنا. نحب الخير للناس، ونرجو أن نكون معهم من أهله، ونطلب العون على ما يلزمنا.

ولا يحتاج هذا الرجاء إلى ادعاء اليقين بالنفس. يكفي اليقين بصدق الله، مع معرفة أن له عملاً يصلحه وقلباً يسأل ثباته. يجتمع الاطمئنان إلى الخبر والجدية في الاستجابة له. كلما ضعف العمل عاد إلى سببه، وكلما رأى خيراً شكر، وكلما خاف من تقصيره رجع إلى باب التوبة.

الفصل الثاني عشر

الكريم الذي تستحي أن تقابل إحسانه بالإعراض

قد يسمع الإنسان وصف الله بالكرم، فيطمئن إلى سعة عطائه، ثم ينسى أن يسأل نفسه عما يليق به أمام هذا الكرم. يبقى المعنى في ذهنه متعلقًا بما يأخذه، ولا يصل إلى الطريقة التي يعيش بها. وحين يقرأ القرآن يجد الخطاب أوسع من هذه الدائرة؛ فكرم الرب يدعو إلى معرفته وتعظيمه، ويجعل الإعراض عنه أشد قبحًا في قلب من عرف إحسانه.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾. [الانفطار: ٦]^{١٠٤}

يوقظ السؤال الإنسان إلى ما أغفله. ما الذي حمله على الغرور وهو يعيش في نعم رب كريم؟ لا تأتي الآية لتجعل الكرم حجة على ترك الطاعة، بل لتكشف فساد هذه الحجة. وقد نبه ابن كثير إلى أن المقصود التهديد والعتاب، وردّ تفسير السؤال بأنه تلقين للإنسان أن يحتج بالكرم. ويبين

١٠٤ ابن كثير والسعدي، تفسير الانفطار: ٦.

السعدي أن هذا العتاب يتوجه إلى التقصير في حق الله والجرأة على معصيته.^{١٠٥}

وهنا يتغير أثر الاسم في القلب. تعرف الكرم فترجو، وتعرف أن الذي ترجوه هو الذي أحسن إليك فتستحي أن تجعل إحسانه طريقاً إلى مزيد من الغفلة. وليس الحياء أن تنقطع عن السؤال إذا أذنبت؛ فإن حاجتك إليه بعد الذنب لا تقل. الحياء أن ترجع وأنت تعرف تقصيرك، وأن تسأل المغفرة دون أن تحول المغفرة إلى عذر تستعد به للذنب القادم.

حين يصبح الإمهال حجة

قد يطول بالإنسان زمن وهو مقيم على تقصير، فلا يرى أثراً عاجلاً يخشاه، فيستنتج أن أمره يسير. تتسع تجارته مع غشّه، أو تستمر مكانته مع ظلمه، أو تبقى صحته مع إسرافه. ثم ينظر إلى استمرار النعمة وكأنه رسالة خاصة تصدق اختياره. هذا الاستنتاج يحتاج إلى التوقف؛ فما يراه هو بقاء نعمة، أما رضا الله عن الفعل فلا يعرفه من استمرار النعمة، وإنما يعرف حكم الفعل من الشرع.

١٠٥ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم؛ والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الانفطار:

ولا يلزمنا، في الجهة الأخرى، أن نزعّم معرفة سر هذا الإمهال في حال شخص بعينه. لا نملك أن نجزم له بغيب خاص، ولا أن نعين العقوبة التي ستصيبه. يكفينا من المعرفة ما يبين الواجب الحاضر: الغش يترك، والظلم يرفع، والنعمة تشكر، والتوبة لا تؤجل انتظاراً لعلامة مخيفة. وقد يكون تأجيل الإصلاح أخطر ما يصنعه المرء بنفسه وهو لا يزال يجد فرصة للعمل.

إذا كنت قد أخذت حقاً ليس لك، فليكن رجاؤك في كرم الله معيناً لك على رده. لا تحتاج إلى أن تثبت أولاً أنك تستحق بداية جديدة، ثم تصلح؛ ابدأ بالإصلاح الذي تعرفه واسأل الله أن يقبله. وإذا كان الحق ملتبساً فاطلب بيان حكمه. معرفة الكرم لا تختصر طريق أداء الحقوق، لكنها تمنع اليأس من أن يوقفك في أوله.

هذا من فضل ربي

قال الله تعالى في خبر سليمان عليه السلام:

{قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي

أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}. [النمل: ٤٠].

ويبين السعدي أنه نسب ما رأى إلى فضل الله واستحضر الاختبار بالشكر، وأن منفعة الشكر تعود إلى العبد، والله غني كريم.^{١٠٦}

هذه المعرفة تغير طريقة استقبال النجاح. يفرح الإنسان بما وفق إليه، ويعترف بجهد وجهد من أعانه، ولكنه لا ينسب الفضل كله إلى حيلته. ثم لا يقف عند عبارة يقولها في أول فرحته؛ يسأل عن الأمانة التي جاءت مع النعمة: مال يستطيع أن ينفقه في حق، أو وقت يستطيع أن يصونه، أو قدرة يستطيع أن يكف بها أذى بدل أن يوقعه.

وقد يطلب من الآخرين الاعتراف بكل تعب بذله، وينسى من بذل معه. من شكر النعمة في المعاملة ألا تمحو جهود الناس حتى تبدو وحدك سبباً لكل خير. ولا يناقض الاعتراف بإحسانهم معرفتك بفضل الله؛ بل يحملك على العدل معهم، من غير أن تعتقد أنهم يملكون لك النفع استقلالاً.

١٠٦ السعدي، تفسير النمل: ٤٠، موضع نسبة الفضل والشكر والغنى والكرم.

وحين تفوتك نعمة تراها عند غيرك، لا تجعل حصوله عليها دليلاً على أنك مطرود من الكرم. لا تملك من علم حاله وحالك ما يسوغ هذا الحكم، ولا تعرف جميع ما أعطي أو ابتلي به. يمكنك أن تسأل الله من فضله، وأن تسعى في سبب مباح، مع حفظ قلبك من احتقار ما عندك أو الاعتراض على ما عند غيرك.

حين نخطئ في تفسير السعة والضيقة

قال الله تعالى:

{فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ} [الفجر: ١٥-١٧].

يعرض القرآن هنا عبارتين متقابلتين: إنسان وسع الله عليه فقال: {رَبِّي أَكْرَمَنِ}، وإنسان ضيق عليه رزقه فقال: {رَبِّي أَهَانَنِ}. وسمي الحالين ابتلاء، ثم جاء الرد: {كَلَّا}. [الفجر: ١٥-١٧]. ليست المشكلة أن الأول وجد نعمة ففرح بها، أو أن الثاني وجد ضيقاً فتألم منه؛ المشكلة في الحكم الذي بنياه على ذلك. يبين السعدي خطأ اختصار الإكرام والإهانة في هذين المظهرين، ويقرر ابن كثير أن سعة المال وضيقة يقعان

لمن يحبه الله ولمن لا يحبه، وأن الاعتبار بما يكون من الشكر والطاعة.^{١٠٧}

هذا التصحيح يمس علاقتنا بأنفسنا قبل علاقتنا بأموالنا. فقد يظل المرء سنوات يقيس قيمته بما يملكه، فإذا نقص ماله شعر أن وجوده كله قد نقص. وربما لم يقل بلسانه إن الله أهانه، لكنه صار يتصرف كأن الضيق حكم على منزلته، فلا يرى في نفسه إلا خسارته، ولا في مستقبله إلا امتدادها. تعلمه الآيات ألا يحمل حادثاً في معاشه ما لا يدل عليه من حكم على قلبه ومصيره.

وبالمثل، قد يتسع رزق الإنسان فيجعل السعة جواباً عن كل سؤال يوجه إليه. إذا نُصح في خطأ قال: لو كنت مخطئاً لما أعطاني الله هذا كله. فينتقل من شكر النعمة إلى اتخاذها حجة لحماية تقصيره. ولا يكشف هذا الاستدلال صلاح العمل؛ فالعمل ينظر في حكمه وصفته، لا في مقدار المال الذي جاء بعده. الربح الكبير لا يغير حقيقة الخداع، كما أن قلة الربح لا تحول الأمانة إلى سذاجة.

١٠٧ القرآن، الفجر: ١٥-١٧؛ السعدي، تفسير الآيات الثلاث؛ ابن كثير، تفسير الفجر: ١٧.

ثم ينتقل السياق إلى معاملة اليتيم: ﴿كَأَلَّا بَلَّ لَا تُكْرِمُونَ
الْيَتِيمَ﴾. [الفجر: ١٧]. وكأن القارئ، بعدما انشغل بتفسير ما
عنده، يُرد إلى أمر أمامه يستطيع أن يعرفه ويعمله: كيف
يعامل من يحتاج إلى إكرامه؟ لا يغنيه النزاع في منزلته عن
واجب ظاهر في معاملة غيره. وهذا من أعمق ما يربيه القرآن
في النظر إلى النعمة؛ أن يستقيم الميزان الذي نزن به أحوالنا،
ثم يظهر ذلك في أثرنا في الناس.

قد يكون في بيتك من لا يملك ما تملك من حرية القرار أو
القدرة على الكلام. وقد يكون في عملك من يخاف أن يطالب
بحقه لأنك أقوى منه. قبل أن تتخذ ما أعطيت علامة على
رفعة نفسك، انظر إلى ما تصنع بهذه القدرة. من شكرها أن
يجد الضعيف عندك إنصافًا، وأن تستطيع سماع اعتراضه من
غير أن تعاقبه لمجرد أنه اعترض. هذه أمثلة على المسؤولية،
وليست أحكامًا بأن كل صاحب سعة ظالم أو كل فقير
مستقيم.

والخروج من هذا الميزان الخاطئ يخفف أيضًا قسوتنا في
الحكم على الآخرين. لا يحتاج محتاج إلى أن نضيف إلى
حاجته تفسيرًا يهيئه، ولا يحتاج صاحب نعمة إلى من يغريه
بنفسه. تستطيع أن تهنيء بما يسر، وأن تواسي فيما يؤلم، وأن

تذكر بالواجب في الحاليين. بذلك تحفظ للإنسان كرامته، وتحفظ للنص معناه، وتبقي ما خفي من القلوب عند من يعلمها.

كرم لا تحصره صورتك للعطاء

يحب الإنسان بعض صور العطاء أكثر من غيرها. قد يرى المال الواضح ولا يلتفت إلى العلم الذي نفعه، أو إلى القدرة على ترك ظلم كان قادرًا عليه، أو إلى باب توبة تعلمه بعد حيرة. وهذه نعم يعرف قدرها بما دلت عليه النصوص من فضل الهدى والطاعة. أما أن يسمى كل منع وقع له هدية مخصوصة، ويشرح يقينًا ما أراد الله به في تلك الواقعة، فهذا تجاوز لما يعلم.

تستطيع أن تشكر الله على خير تعرفه، وأن ترجو فضله فيما لم يتبين لك. وإذا لم تجد جوابًا لسؤال مؤلم، فلا تصطنع جوابًا كي يبدو كلامك مطمئنًا. من صدق التعظيم أن يتسع لسانك للدعاء ويقف علمك عند حدّه. وقد يكون أصدق ما تقوله في تلك الساعة: يا رب، لا أعلم عاقبة هذا الأمر، وأنت تعلم، فاهدني وأعني ولا تكلني إلى نفسي.

ومعرفة الكريم تهذب صلتك بالناس كذلك. فما في يدك من
قدرة أو مال ليس سببًا لإهانة المحتاج. يمكن أن تعطي دون
تذكير دائم بعطائك، وأن تعتذر عن العجز دون أن تجرح، وأن
تستر حاجة من أعنته. وهذه صور من حسن المعاملة تختارها
في حدود استطاعتك، دون أن تجعل عطاءك للناس صفقة
تشتري بها على الله أن يرد إليك مالا بعينه أو منزلة بعينها.
وفي نهاية هذا المعنى لا يبقى السؤال: كم أخذت؟ بل ينضم
إليه: ماذا صنعت بما أعطيت؟ ربما كان في يدك اليوم ما
تنتظر أن يأتيك أكثر منه، لكن حقه الحاضر لا ينتظر الزيادة.
أحسن استعمال ما تعرف، واستغفر من تقصيرك فيه، وارج
مزيد الفضل ممن لا يضيق كرمه بحاجتك ولا يسوغ كرمه
جرائتك على أمره.

الفصل الثالث عشر

الشكور الذي لا تحتقر عنده العمل الصالح

في النفس ميل إلى قياس الأعمال بحجمها الظاهر. مال كثير يراه الناس، ومشروع كبير يسمعون به، وكلمة تصل إلى جمهور واسع. ثم ينظر الإنسان إلى قدرته المحدودة فيستصغر ما يمكنه فعله، كأن العمل إن لم يكن لافتًا لم يكن جديرًا بالبذل. وقد يحمله هذا القياس على ترك خير متاح وهو ينتظر قدرة أوسع لا يعلم متى يجدها.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾. [فاطر: ٢٩]^{١٠٨}

وقال سبحانه بعدها:

﴿لِيُؤْفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾. [فاطر: ٣٠]^{١٠٩}

١٠٨ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير فاطر: ٢٩.

١٠٩ ابن كثير والسعدي، تفسير فاطر: ٣٠.

يأتي الرجاء في هذا السياق مصاحبًا للتلاوة والصلاة والإنفاق، ثم يأتي الوعد بتوفية الأجور والزيادة من الفضل. يبين السعدي أن تلاوة الكتاب تتناول اتباع أوامره ونواهيه وتصديق أخباره، مع تلاوة ألفاظه وفهم معانيه. ويذكر ابن كثير في تفسير الآية التالية مضاعفة الثواب، وأن الله يشكر القليل من العمل. فليس الحديث عن أمنية انفصلت عن الفعل، ولا عن حساب تجاري يفرض به العبد على ربه مقدار ما يريد.^{١١٠}

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل»^{١١١}

و«عدل تمرة» قدرها، و«فلوه» ولد فرسه. يقرب الحديث معنى تنمية الصدقة بهذا المشهد المحسوس، مع حفظ الفرق بين صفات الخالق وصفات المخلوق.

١١٠ السعدي، فاطر: ٢٩، والسعدي، فاطر: ٣٠، وابن كثير، فاطر: ٣٠.

١١١ صحيح البخاري، حديث ١٤١٠.

يضع الحديث أمام القلب قدرًا يسيرًا من الصدقة، ثم يفتح له باب الرجاء في عظيم فضل الله. وفي الوقت نفسه يلفته إلى الكسب الطيب. فليست كثرة المال وحدها هي التي ترفع قدر العطاء، ولا يصير المال المحرم طيبًا لمجرد أن صاحبه بذل بعضه. وإذا أردت أن تحسن العمل فاسأل عن وجه تحصيله كما تسأل عن وجه إنفاقه.

القليل الذي تملكه فعلاً

قد يكون نصيبك اليوم من الخير مختلفاً عما تتمنى. لا تملك نفقة كبيرة، لكنك تستطيع أداء واجب معلوم. لا تملك وقتاً طويلاً، لكنك تستطيع تعلم ما يلزمك في أمر يتكرر في حياتك. لا تقدر على إزالة كل ضرر حولك، لكنك تستطيع الكف عن ضرر يصدر منك. هذه الموازنة تحررك من انتظار صورة عظيمة للعمل قبل أن تعترف بقيمة الممكن منه.

ولا يعني ذلك أن كل ما نسميه صغيراً يستوي في الحكم أو المرتبة. فالواجب مقدم على تطوع يزاحمه، وحق الإنسان لا تسقطه صدقة لغيره. من ضاقت يده عن بعض أعمال البر لا يكلف نفسه ديناً لا يستطيع وفاءه ليبدو كثير العطاء. ومن كان عليه حق مستحق لا يحول ما يجب لصاحبه إلى باب

يستحسن هو صورته. الرجاء في قبول العمل يجعلك أحرص على صلاحه، لا أقل عناية بشروطه.

وفي هذا الموضع يحتاج القلب إلى صدق خفي. ربما قدرت على خير ولم يرك أحد، فلم تجد الحافز الذي كنت تجده حين يلتفت الناس إليك. هنا تظهر فرصة لمراجعة القصد دون استعراض تلك المراجعة نفسها. افعل الخير المشروع لأنك ترجوه عند الله، ولا تجعل غياب الشاهد البشري دليلاً على قلة قيمته. ثم امض إلى ما بعده؛ فلست محتاجاً إلى أن تراقب إعجابك بإخلاصك كلما أتممت عملاً.

حين لا ترى ثمرة سعيك

قد تعلم طفلاً فلا يظهر أثر التعليم سريعاً، أو تنصح بلطف فلا يقبل منك، أو تؤدي أمانتك ولا يشكرك صاحبها. ما يقع بعد العمل ليس كله في قدرتك. راجع طريقتك إذا ظهر سبب للمراجعة، واعتذر عن خطأ إن وقع، لكن لا تساو بين قلة الاستجابة وضياع كل معنى في الفعل. عند الله لا يستوي العمل الصالح والإعراض عنه، وإن لم يحسن الناس تقدير ما قدمته.

ومع هذا الرجاء لا تشهد لنفسك بقبول معين لا تعلمه.
تستطيع أن تحسن وتستغفر وتسال القبول، وأن تثق بوعد
الله الحق دون أن تزكي أدائك تزكية مطلقة. فقد يحتاج فعل
نافع إلى إصلاح نية، وقد تحتاج نية حسنة إلى تعلم الطريقة
الصحيحة. المعرفة باسم الشكور تجمع الرجاء مع العناية
بهذين الأمرين، وتمنعك من تحويل العمل إلى ادعاء على الله.
ومن آثارها أن يهون عليك ترك المنّ. فإذا أعنت إنسانًا، فلا
تجعل حاجته القديمة قيدًا تحبسه فيه، ولا تطلب منه أن
يظل شاهدًا على فضلك. اسأل الله أن يتقبل، ودع للمستفيد
كرامته. وإن كان بينكما اتفاق معلوم فاطلب حقك بوضوح،
دون خلط حق العقد بمطالبة لا تنتهي بالشكر والثناء.
وقد تمر عليك أيام يقل فيها ما تستطيع فعله. مرض أو تعب
أو مسؤولية واجبة تغير اتساع الوقت. لا تقارن يومك كله
بيوم شخص آخر لا تعرف تفاصيله، ولا تملأ الفراغ بوعود
قاسية لنفسك. انظر إلى الواجب الممكن والعمل المشروع
الذي تطيقه، ثم اعمل وأنت فقير إلى فضل الله. إن معرفة
سعة فضله تصلح لأن تحملك على البداية، ولا تحتاج أن
تنتظر شعورًا بالعظمة في العمل حتى تبدأ.

الفصل الرابع عشر

الوهاب: وأعظم ما تسأله صلاح قلبك

يأتي كثير من دعائنا من حاجة نراها أمامنا: باب رزق، أو زوال ألم، أو صلاح أمر نحبه. وهذه حاجات مشروعة نسأل الله منها ما يحل لنا. لكن القلب نفسه يحتاج إلى سؤال؛ فهو الذي يتلقى النعمة والبلاء، ويختار ويقصد، وقد يفسد وجه انتفاعه بما يناله إن غفل عن هدايته.

قال الله تعالى:

{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [آل عمران: ٨]^{١١٢}

هذا دعاء جاء في سياق ذكر الراسخين في العلم. لم تحملهم معرفتهم على الاستغناء عن سؤال الثبات، بل عرفوا حاجتهم فسألوا ألا تزيع قلوبهم بعد الهدى، وسألوا الرحمة من الوهاب. يربط ابن كثير الدعاء بالثبات على الهدى وعدم الميل عنه، ويبين السعدي افتقارهم إلى حفظ الله ورحمته. فالعلم الذي

١١٢ ابن كثير والسعدي، تفسير آل عمران: ٨.

ينفع صاحبه يجعله أعرف بموضع حاجته، ولا يمنحه ضماناً
يغنيه عن الدعاء.^{١١٣}

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه كان
يقول:

«اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»^{١١٤}

يجمع هذا الدعاء مطالب تصلح بها حياة الإنسان من داخلها.
تحتاج إلى هدى تعرف به وجه الطريق، وإلى تقى تصون به
عملك، وإلى عفاف وغنى تسألهما من الله. وحين تجعل هذه
المعاني حاضرة في دعائك، فإنك لا تلغي حاجات يومك، وإنما
تسأل ما يعينك على أن تعيشها على وجه أصح.

أن تسأل النعمة وتسأل حسن حملها

قد يطلب الإنسان قدرة جديدة ولا يسأل عما سيصنع بها.
يتمنى أن يتسع رزقه، ثم لا يفكر في حق واجب ربما فرط
فيه. يريد أن يسمع الناس قوله، ثم لا يستعد لمسؤولية الكلمة.

١١٣ ابن كثير، آل عمران: ٨، والسعدي.

١١٤ صحيح مسلم، حديث ٢٧٢١.

يرجو زواجًا أو ولدًا أو عملاً، لكنه يحتاج مع ذلك كله إلى هدى في المعاملة وصبر على الأمانة وعدل عند الخصومة.

لا تجعل هذا التأمل حاجزًا بينك وبين الدعاء، كأنك لا يحق لك السؤال حتى تضمن إحسان استعمال ما تسأل. اسأل الله الخير والإعانة عليه معًا. وراجع ما تعرفه من أسباب التقصير الآن؛ فتعلم الأمانة قبل اتساع المسؤولية ممكن، وترك ظلم قائم لا يحتاج إلى انتظار نعمة أخرى. تتجه الرغبة إلى المستقبل بينما يبقى لليوم عمله الذي تطيقه.

وأنت تسأل الوهاب، تذكر أن الهبة لا تتحول إلى حق تدعيه لمجرد شدة رغبتك. قد تكون الرغبة قديمة ومؤلمة، وقد تكون أسبابها صادقة، لكنك لا تعرف جميع ما غاب عنك. ألح في الدعاء المشروع دون أن تعيّن موعدًا تختبر به صدق الوعد الإلهي، ودون أن تجعل حصول غيرك على ما تريد دليلًا على إسقاطك من الرحمة. هذا التفسير الجارح يحتاج إلى دليل لا تملكه.

الثبات عمل ودعاء

إذا خفت على قلبك من باب تعرف أنه يضعفك، فاجمع إلى سؤال الثبات عملاً ممكنًا في ذلك الباب. ابتعد عن موضع

معصية باختيارك، أو تعلم حكمًا يمنعك من التباس، أو اطلب
صحة تعينك على الخير. الدعاء لا يمنع هذه الأسباب،
والأسباب لا تملك قلبك استقلالاً عن الله. وأنت تمضي بينهما
تتعلم أن الافتقار ليس كلمة ترددها بعد أن تنتهي قدراتك؛ إنه
حقيقة تصحبك وأنت قادر وتعمل.

ولا تنقل الخوف على قلبك إلى محاكمة كل تغير عابر في
شعورك. قد تكون أقل نشاطاً اليوم، أو مشغولاً بمرض قريب،
أو مرهقاً من عمل مباح. يحتاج الأمر إلى فهم قبل الحكم. فإذا
علمت تقصيراً بعينه فأصلحه، وإذا لم تعلم فلا تجعل غياب
الانفعال المألوف شهادة على فساد باطنك. وسيأتي في
المجلد الثاني تفصيل الفرق بين تفاوت الحضور القلبي وبين
اتخاذ ذلك ذريعة للتفريط.

يبقى للمرء أن يعرف ما يسأل، ثم يحسن طرق الباب بصدق.
يمكنك أن تسأل مأللاً يسد حاجتك، وأن تسأل قلباً يشكر إذا
وجد ويصبر إذا فقد. أن تسأل انكشاف الغمة، وأن تسأل هدى
في الكلمة التي تقولها وأنت مغموم. أن تسأل صلاح من
تحب، وأن تسأل صلاح معاملتك له. تتسع حاجتك إلى
الوهاب بقدر ما تعرف نفسك، وتبقى الرحمة التي ترجوها
أكبر من أن تحصرها في مطلب واحد.

الفصل الخامس عشر

حين تصير المعرفة ثقة

قد يفهم الإنسان معنى ثم يجد قلبه عند أول اختبار كأنه لم يسمعه. قرأ عن الرزاق، ثم أفزعه خبر في عمله. وعرف سعة المغفرة، ثم انقبض حين تذكر ذنبًا. وتعلم معنى الكفاية، ثم عاد يفتش عن ضمان في كل احتمال. هذه المسافة بين ما نفهمه وما نستحضره في حياتنا تحتاج إلى عمل هادئ، لا إلى حكم سريع بأن المعرفة لم تنفع.

المعرفة التي تبني الثقة تزداد حضورًا كلما عدت إليها في موضعها. حين تخطئ، تستحضر باب التوبة فتبدأ به. وحين تحسن، تشكر وتسأل القبول. وحين تعزم، تستعين بالله وتفعل ما تبين لك. هكذا يرتبط المعنى باختيار، ويخرج من الذاكرة إلى العمل.

ولا تتعلق الثقة بالله بمقدار ما تراه من قوة في نفسك. قد تكون قليل الخبرة في أمر فتحتاج إلى من يعلمك، وقد تخاف مسؤولية فتطلب من يعينك. افتقارك إلى التعلم والمساعدة لا

يعارض افتقارك إلى الله؛ فمن حسن استعمال السبب أن تعرف ما ينقصك وأن تطلبه من بابه.

وقد هدانا سبلنا

قالت الرسل لأقوامها، كما أخبر القرآن: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. [إبراهيم: ١٢]. يشرح الطبري صلة التوكل بما بينه الله من طريق النجاة، ويبين السعدي كيف تدعو معرفة الهداية والمعونة إلى الاعتماد على الله.^{١١٥}

وفي الآية نفسها ذكر الصبر على الأذى. فهذا التوكل حاضر في طريق فيه مقاومة ومشقة، لا في حياة خلت من أسباب الخوف. ننظر إلى ما أخبر به القرآن عن الرسل لتتعلم موضع الثقة، ونحفظ لهم مقامهم؛ فلا نجعل أنفسنا أصحاب وحي، ولا ننقل كل خبر عن نصرهم إلى توقع خاص لنا.

وثمة نعمة قد ننسى شكرها حين نتحدث عن أبواب لم تفتح: أن نعرف الطريق الصحيح أصلاً. أن يتبين لك أن عملاً ظلم،

١١٥ الطبري والسعدي، تفسير إبراهيم: ١٢؛ تلخيص المعنى مع حفظ سياق خطاب الرسل لأقوامهم.

فتتركه، أو أن تفهم خطأ في عبادتك فتصححه، أو أن تجد من يبين لك حكماً احتجت إليه. لا يحل هذا محل السؤال عن رزق أو عافية؛ لكنه يزيدك انتباهاً إلى خير حاضر وسط ما تنتظره.

وحين يستحضر القلب الهداية، يتسع طلبه. يسأل الثبات على الحق كما يسأل تيسير الأمر. ويخاف أن يربح شيئاً فيفسد طريقه إليه، كما يخاف أن يفوته ما يحب. بذلك يصبح التوكل اعتماداً يعين على العبودية كلها، لا كلمة لا نتذكرها إلا عند التنافس على حظ دنيوي.

فإذا عزم

قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾. [آل عمران: ١٥٩]. يذكر ابن كثير العزم بعد المشاورة، ويبرز السعدي الاعتماد على حول الله وقوته. في

الآية نظر ومشاورة وقرار وتوكل؛ لا تلغي حركة القلب عمل العقل.^{١١٦}

قد يطول تردد الإنسان لأنه يريد من القرار أن يكشف المستقبل كله قبل أن يتخذه. يجمع معلومة نافعة، ثم يعود إلى السؤال نفسه طلباً ليقين لا تمنحه طبيعة الأمر. والمشاورة لا تجعل البشر عالمين بالغيب، لكنها تعينهم على قرار أفضل بما يتاح من علم. فإذا بان لك وجه العمل المباح، فلا تشترط أن تختفي كل مخاطرة حتى تسمح لنفسك بالسعي.

وقد يقع العكس: يعجل المرء برأي لم يفحصه، فإذا نصحه أحد قال إنه متوكل. استخدام الكلمة هنا لا يعفيه من مراجعة النقص في قراره. إن كنت لا تعرف، فتعلم؛ وإن تعلق الأمر بحقوق غيرك، فاعرف حدود صلاحيتك؛ وإن احتاج إلى خبير، فاسأله. كل ذلك من جدية العمل الذي تسأل الله بركته.

والمشورة الصادقة تحتاج إلى استعداد لسماع ما لا يوافق هواك. من سأل أشخاصاً كثيرين حتى وجد من يوافق قراره المسبق، قد يكون طلب تزكية أكثر مما طلب معرفة. لا نعلم

١١٦ السعدي وابن كثير، تفسير آل عمران: ١٥٩؛ موضع المشاورة والعزم والتوكل.

نيتة، لكن السلوك نفسه يدعوه إلى سؤال: هل أبحث عما
ينفعني، أم عما يريحني من المراجعة؟

خذ من رأي غيرك ما يقوم عليه دليل وخبرة، ولا تجعل
شخصه بديلاً عن مسؤوليتك. وفي المقابل، لا تحقر النصيحة
لأن صاحبها أصغر منك أو أقل حضوراً بين الناس. المعرفة قد
تأتيك ممن لم تتوقعه، والتواضع لها جزء من إصلاح العمل.

بعد أن تبذل السبب

من أصعب المواضع أن تفعل ما تستطيع ثم تنتظر ما لا
تستطيع فعله. هنا قد ينشغل الإنسان بإعادة كل خطوة في
ذهنه، كأنه يريد أن يستخرج من التفكير المستمر سيطرة على
النتيجة. المراجعة تنفع حين تكشف خطأ قابلاً للإصلاح؛ أما
إعادة السؤال بلا معلومة جديدة فقد لا تزيده علماً.

فرّق بين مراجعة لها عمل وبين دوران لا يفضي إلى شيء. إن
اكتشفت نقصاً أصلحته، وإن احتجت إلى خبر طلبته، وإن لم
يبق في يدك شيء من ذلك، فلا تنس حقوقاً أخرى تنتظرك
في يومك. اهتمامك بأهلك أو صلاتك أو أمانة أخرى لا يعني
أنك لا تبالي بالأمر الذي تنتظره. إنه يمنع هذا الأمر من أن
يستولي على حياتك كلها.

وقد يحتاج المرء إلى أن يتعلم هذا التوازن بالتدرج. لا ينفعه أن يوبخ نفسه كلما عاد خوفه، ولا أن يسمي كل انشغال توكلاً. يصدق في وصف حاله، ويسأل الله العون، ويفعل ما يستطيع من ترتيب عمله. وما نقترحه هنا تقريب للمعنى في الحياة، لا مقياس شرعي نحاكم به إيمان الناس بحسب قدرتهم على الهدوء.

وفي تلك المسافة يتضح الفرق بين الاعتماد على الله والاعتماد على مدح الناس لك. قد يقولون إنك قوي، وأنت تعرف موضع ضعفك؛ وقد يرون في مشورتك تردداً، وأنت تحتاج إليها. لا تجعل صورتك عندهم هي التي تقرر كيف تطلب العون أو تعالج خطأك.

حرص واستعانة ثم تسليم

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ:

«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن

أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان».^{١١٧}

في الحديث حرص على النافع واستعانة بالله، ثم أدب مع ما وقع. لا يختصر التوكل في مرحلة واحدة، ولا يجعل التسليم مانعاً من بذل السبب قبل وقوع الأمر.

ويشرح النووي الحرص بطلب طاعة الله والرغبة فيما عنده مع الاستعانة به، ثم يفصل في استعمال «لو». ويستدل بكلام ثابت للنبي ﷺ على أن اللفظ ليس ممنوعاً في كل سياق؛ فيفرق بين تحسر لا ينفع وبين كلام يتعلق بفائدة أو خير فات.^{١١٨} لذلك لا نحتاج إلى منع الإنسان من مراجعة خطئه حتى نقول إنه سلم للقدر.

لو قال صاحب عمل: لو رتبت الموعد على وجه آخر لاستطعت الوفاء به، ثم بنى على ذلك تنظيماً أصح، فقد قصد التعلم من تقصير ظهر له. أما أن يظل يعيد مشهداً مضى ليزعم أنه كان يملك دفع كل مكروه يقيناً، فهذا يطلب من

١١٧ مسلم، الصحيح، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، حديث ٢٦٦٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

١١٨ النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، شرح حديث ٢٦٦٤، ج ١٦ ص ١٦٤ بحسب العرض الرقمي.

معرفته بالأسباب ما لا تملكه. قد نعرف سببًا ونغفل عن آخر، وقد نبذل ما نقدر عليه ولا تأتي النتيجة كما أردنا.

يفيد هذا الفرق في النظر إلى الماضي. بدل أن تعيد محاكمة يومك كله، سمّ الشيء الذي تعلمته منه: معلومة لم تسأل عنها، أو استعجالاً تستطيع تقليه، أو حقًا ينبغي أن تصلحه. وإذا لم تعرف خطأ معينًا، فلا تختلقه لإرضاء رغبتك في تفسير كل ما وقع. يمكنك أن تتعلم بصدق، وأن تقول فيما خرج من يدك ما علمك النبي ﷺ من الإيمان بقدر الله.

وقد تصعب هذه النقلة على من طال اعتياده لوم نفسه. فلا نطالبه أن يتوقف تفكيره بمجرد أمر يسمعه، ولا نحكم عليه من تكرر خاطر لم يختره. نذكره بالمعنى الصحيح، ونعينه على العمل الذي يستطيع، ونميز بين علم يرشده وتعنيف يزيده اضطرابًا. معرفة ربه تسنده في التصحيح، ولا تصبح عصًا يضرب بها نفسه عند كل تعثر.

وحين يراجع ثم يعمل، لا يكون قد أغلق باب العناية بما حدث؛ إنما أعطى الماضي قدره من التعلم، وأعطى الحاضر حقه من الاستجابة. هذه الثقة تستوعب نقص خبرته، وتسمح له أن يتغير، وتبقي قلبه مفتقرًا إلى الله في نجاحه وفي خطئه.

تعلم المعنى الذي تحتاج إليه

قد يكثر ما يقرأه الإنسان ويبقى ما يحتاجه في موضع ضعفه غائبًا. يعرف أسماء الكتب، ويحفظ عبارات عن التوكل، ثم لا يعرف كيف يتصرف حين يخطئ في حق قريب. المعرفة النافعة هنا تبدأ بسؤال محدد يربط الدليل بالعمل.

إذا أثقلت ذنب، فعد إلى أدلة التوبة واقرأ شروط الرجوع في مسألتك. وإذا احتجت إلى قرار، فاعرف حكمه وأسبابه واستشر فيه. وإذا سمعت كلامًا عن الله أقلقك، فتتحقق من نسبته ودلالته قبل أن تجعله أصلًا في اعتقادك. ليست كل عبارة مؤثرة حديثًا، ولا كل حكاية متداولة واقعة ثابتة.

وحين تختلف عليك أقوال أهل العلم، لا تحسم الخلاف بما وافق شعورك وحده. اسأل من تثق بعلمه وأمانته، وبيّن له ما تحتاج إلى فهمه. ليس مطلوبًا من كل قارئ أن يصير متخصصًا في جميع الأبواب، ولكن من حق المعرفة عليه أن يعرف متى يحتاج إلى المتخصص.

وقد تحمل آية واحدة قرأتها بفهم إلى تغيير حقيقي في يومك. لا تقاس المنفعة بعدد ما تنهيه من صفحات فقط، بل بما يتبين لك من حق وما تصلحه من عمل. وإذا أقبلت على

قراءة جديدة، فليكن فيها طلب علم يزيد ما عندك، لا بحث دائم عن تأثير يعفيك من تطبيق ما تعلمت.

ثقة تثمر رفقا

من علامات انتفاعنا بهذه المعاني أن نخفف قسوتنا في الحكم على قلوب الآخرين. نرشد المذنب إلى التوبة، ولا نغلق بابها. ونعين الخائف على ما ينفعه، ولا نستخرج من خوفه حكماً على إيمانه. ونذكر المظلوم بالعدل، ولا نستخدم ذلك للضغط عليه ليتنازل عن حقه.

ليس الرفق ترغاً للحق. قد يحتاج الإنسان إلى بيان واضح بأن ما يفعله محرم، أو بأن حقاً في ذمته يجب أدائه. لكن وضوح الحكم لا يحتاج إلى اختراع مصير لصاحبه، ولا إلى وصف نيته بما لا نعرف. نستطيع أن نقول الحق وأن نحفظ مع قوله حدود علمنا.

وهذا الرفق يبدأ مع نفسك أيضاً. إذا عرفت خطأ فصحه، وإذا عجزت عن شيء فاطلب العون، وإذا وجدت خيراً فاشكر. لا تتعامل مع كل تعثر كأنه تعريف أبدي لك، ولا مع كل نجاح كأنه براءة شاملة. ابق في موضع العبد الذي يتعلم ويعمل ويحتاج إلى ربه.

خاتمة

معرفة تصحبك

تبدأ معرفة الله من خبره عن نفسه، ثم تصحبك في مواضع حاجتك. حين تذنّب تعرف من تتوب إليه، وحين تجهل الحكمة تتذكر علمه، وحين تضيق الأسباب تتذكر قدرته، وحين تُظلم تتعلّق بعدله، وحين تعمل لا تستغني عن فضله.

ارجع إلى القرآن، وافهم النصوص في سياقها، واسأل عما أشكل عليك. لا تتخذ انطباعك عن حادثة مصدرًا لتعريفك بربك، ولا تؤخر الرجوع إليه حتى تحيط بكل مسألة. ابدأ بما علمت، واستعن به على ما لم تعلم. تريد الفرج فتسأله، وتخاف فتستعيز به، وتخطئ فتستغفره، وتحسن فتحمده. تسير إليه مفتقرًا إلى توفيقه، راجيًا رحمته، مصدقًا وعده.

المصادر والمراجع

يرجع التوثيق التفصيلي إلى الحواشي المتصلة بكل موضع. وفيما يأتي الكتب التي استُعملت في هذا المجلد؛ أرقام الصفحات المذكورة في بعض الحواشي تتبع العرض الرقمي المبين فيها، ولم تنسب إلى طبعة ورقية لم تُقابل. القرآن الكريم.

الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.

البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح.

مسلم بن الحجاج. الصحيح.

الترمذي، محمد بن عيسى. الجامع.

ابن ماجه، محمد بن يزيد. السنن.

الألباني، محمد ناصر الدين. صحيح سنن ابن ماجه؛ وصحيح
سنن الترمذي. أحكام الحديثين منقولة بواسطة الموسوعة
الحديثية بالدرر السنية.

النووي، يحيى بن شرف. المنهاج شرح صحيح مسلم بن
الحجاج؛ ورياض الصالحين.

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. فتح الباري شرح صحيح
البخاري.

البغوي، الحسين بن مسعود. شرح السنة.

ابن الملقن، عمر بن علي. التوضيح لشرح الجامع الصحيح.

المباركفوري، محمد عبد الرحمن. تحفة الأحوزي بشرح جامع
الترمذي.

ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد. جامع العلوم والحكم.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر. مدارج السالكين؛ والداء والدواء.

صديق حسن خان. السراج الوهاج من كشف مطالب صحيح
مسلم بن الحجاج.

ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله. الفتاوى وشروح رياض
الصالحين المشار إليها في الحواشي.